مصر

في كتابات الرحالة الفرنسيين
في القرنين السادس عشر والسابع عشر

تأليف

د. إلهام محمد على ذهني

كلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩١

ذات رؤية احادية فى الغالب ، وهى رؤيتنا لأنفسنا ، بحكم أن جل من كتبوها كانوا من الباحثين المصريين ، وما قدمته الدكتورة الهام ذهنى انما كان شكل من أشكال الرؤية فى المرآة الأوربية .

اعتبار آخر : أن هذا العمل قد تطلب الغوص فى الكتابات القديمة للرحالة الفرنسيين ، وهو غوص قد استلزم معرفة جيدة بلغة هؤلاء وبطبيعة العصر الذى وضعوا فيه كتاباتهم ، مما يتطلب مثابرة خاصة ، وهو ما نجحت المؤلفة فى صنعه وتقديمه لقارىء مصر النهضة .

بالاضافة الى ذلك فان كتابات الرحالة الأوربيين بما فيهم الفرنسيون كانت تتميز دائما بالرؤية الثاقبة لأحوال المجتمع المصرى بكل أبعاده ، وذلك بحكم ما كان يمثلكه هذا المجتمع من عالم غريب عليهم ، يلفت نظرهم فيه أشياء كثيرة قد تبدو لابن هذا المجتمع أشياء طبيعية .

وبالتالى فقد دققوا فى وصف هذه الأشياء ومتابعة تفاصيلها ، ومن ثم تكتسب هذه الدراسة أهميتها فى مجال الرؤية الاجتماعية لمصر فى تلك القرون البعيدة .

يبقى أخيرا أن نتصور ونحن محقون فى هذا أن مجموعة العلماء الذين صاحبوا الحملة الفرنسية وعكفوا على وضع السفر العظيم تحت اسم « وصف مصر » لم يضعوا هذا العمل من فراغ وانما سبقهم اخوان لهم هم الذين أشارت اليهم صاحبة هذا المؤلف . .

وعلى ضوء كل هذه الاعتبارات تقدم هذا العمل لقراء « مصر النهضة » لعله يكون مصدر فائدة ومتعة لهم .

وعلى الله قصد السبيل ؟

مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر

المقدمـــة

تتناول هذه الدراسة كتابات الرحالة الفرنسيين عن مصر خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وقد حرصت فيها على القاء الضوء على الوضـــع السياسى فى مصر ، والعلاقة بين الدولة العثمانية وفرنسا خلال هذه الفترة لأن بعضا من هؤلاء الرحالة تم ايفادهم فى بعثات رسمية أو سفارات الى الدولة العثمانيـــة ، كذلك حرصت على التعريف بشخصيات هؤلاء الرحالة فمنهم الطبيب والعالم ورجل الدين والجغرافى .

وقد التزمت فى هذه الدراســـة بما ذكره الرحالة بالفعل من وصف ومشاهدات وأوردت المبالغات التى كتبوها .

وقد فضلت تخصيص هذه الدراسة لرحالة القرنين ١٦ ، ١٧ وذلك لتشابه كتابات هؤلاء الرحالة خـــلال هذه الفترة ، ولأن معظمهم اقتصرت زياراته على مدن مصر السفلى والمزارات المسيحية فقط ، أما رحالة القرن الثامن عشر فقد جابوا مدن

مصر خاصة الوجه القبلى وسجلوا مشاهداتهم بصورة أعمق وأكثر دقة ولذلك آثرت تخصيص دراسة خاصة بهم باذن الله .

ويمكننا القول ان علماء الحملة الفرنسية افادوا من كتابات هؤلاء الرحالة جميعا الذين توافدوا على مصر منذ مطلع القرن السادس عشر وحتى مجيء الحملة فى نهاية القرن الثامن عشر فكانت كتابات هؤلاء الرحالة هى المنارة التى أرشدت علماء الحملة فتعرفوا على مصر من خلال هذه الكتابات ثم تعمقت هذه المعرفة بصورة علمية دقيقة بعد وصولهم الى مصر مع الحملة الفرنسية فوصفوها وصفا علميا دقيقا شاملا .

واخيرا لا يسعنى الا أن أقدم خالص الشكر والعرفان للأستاذ الدكتور يونان لبيب على ما بذله من اهتمام لهذا البحث ، كما اتوجه بالشكر الى سكرتير التحرير الأستاذ خلف عبد العظيم لحرصه الشديد على سرعة اتمام هذا العمل .

والله ولى التوفيق ؟

د. الهام ذهنى

الفصـــل الأول

علاقة فرنسا بمصر والدولة العثمانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر

أولا ـ أحوال مصر السياسية فى القرن السادس عشر

علاقة قانصوه الغورى بفرنسا والقوى الأوربية

شهدت مصر فى العقد الثانى من القرن السادس عشر تحولا خطيرا فى تاريخها السياسى ، اذ قوض العثمانيون الأتراك حكم دولة المماليك وتحولت مصر الى ولاية عثمانية بعد ان كانت دولة عظيمة تمتد حدودها من مصر الى الشام والحجاز . كذلك شهدت الدولة العثمانية خلال هذا القرن اتصالات فرنسية مكثفة كان من نتائجها تحالف الدولتين ، ومساندة الدولة العثمانية المسلمة لملوك الفالوا Valois الفرنسيين .

وقبل أن نتحدث عن تطور العلاقة بين فرنسا والدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر وانعكاس ذلك على مصر ، ينبغى لنا ان نلقى نظرة سريعة على العلاقة بين الأشرف قانصوه الغورى آخر سلاطين المماليك وفرنسا قبيل انهيار دولته .

تولى الغورى (١) حكم مصر فى عام ١٥٠١ بعد فترة من

---

(١) تولى الغورى عدة مناصب هامة فى عهد الأشرف قايتباى فعمل كاشفا فى مصر العليا ثم نصب أميرا للجنود ١٤٨٤ ، وعمل فى حلب وحكم طرطوس وسيلسيا وعمل فى خدمة الناصر بن قايتباى ١٤٨٨ وقاد الحروب مع العادل طومان باى الأول فى دمشق .

الاضطربات والتنافس على الحكم هذا وقد أفاض الرحالة الفرنسى جان تينو Jean Thenaud الذى زار مصر فى عهد الغورى فى وصف الاضطرابات التى عانت منها مصر قبيل تولى الغورى من انعدام الأمن والتنافس بين الأمراء على الحكم الى أن أستقر رأى المشايخ على تعيين الغورى سلطانا على مصر فنصبه مهام منصبه الخليفة المستمسك بالله والقضاء الأربع (٢) .

وقد أثبت الغورى أنه جدير بمنصبه رغم كبر سنه ، وتجاوزه الستين عاما ، فقد عمل على اعادة الأمن والاستقرار الى البلاد ، واهتم بتحصين المدن الهامة مثل الاسكندرية ورشيد، واهتم بتقوية قلعة صلاح الدين . ورغم جهوده فان مصر لم تنعم بالاستقرار طويلا بسبب تفاقم الخطر البرتغالى واحتكار البرتغال التجارة الشرقية . ومهاجمتها للسفن الاسلامية فى مياه المحيط الهندى والبحر الأحمر (٣) .

وقد شهدت مصر فى عهد قالصوه الغورى العديد من السفارات والبعثات الاسلامية قصد أعضاؤها بلاط الغورى لعدة أسباب فندها الرحالة الفرنسى « جان تينو » على النحو التالى :

١ ـ النشاط البرتغالى فى مياه المحيط الهندى واحتكار البرتغال التجارة الشرقية ومنعها القوى الاسلامية من التجارة .

---

(٢) Thenaud, Jean : Le voyage D'outremer (Egypte Mont Sinay Palestine) Paris 1884 pxl 1.

(٣) د. سعيد عاشور : **الابوبيون والمماليك فى مصر والشام** القاهرة ١٩٦٩ ص ٣٣٣ .

٢ ـ معاناة مسلمى اسبانيا من المسيحيين واجبارهم على اعتناق المسيحية .

٣ ـ الحملات الأسبانية المتواصلة ضد مسلمى شمال افريقيا فكثرت سفارات البربر من تونس والمغرب الى القاهرة للاستنجاد بالغوري ضد أسبانيا ، وطالبوه باستبعاد التجار المسيحيين من الشرق (٤) .

وجدير بالذكر أن بلاط الغورى لم يشهد فقط بعثات اسلامية من المغرب أو الهند وانما شهد أيضا بعثات وسفارات اوروبية بل أسبانية . ففى عام ١٥٠١ أرسل ملكا أسبانيا فرديناندو ايزابيلا بعثة الى مصر برئاسة بيير مارتير دانجير Pierre Martyr D'Anghiera وصلت الى الاسكندرية حيث نزلت فى ضيافة القنصل الفرنسى فيليب بيريه Philippe Peretz ثم سافر دانجيرا الى القاهرة فوصلها فى ١٦ يناير ١٥٠٢ هذا ويصف الرحالة الفرنسى « جان تينو » اللقاء بين الغورى ودانجيرا بأنه « كان لقاء عاصفا » توعد فيه الغورى حكام أسبانيا من جراء اضطهادهم للمسلمين ، وفشلت بعثة دانجيرا فى عقد أية اتفاقيات تجارية مع الغورى وعلل تينو فشل البعثة بسبب « دسائس المغاربة واليهود » وغادر دانجيرا القاهرة فى فبراير ١٥٠٢ (٥) .

ولم يكتف الغورى باستقبال البعثات الأوروبية ، بل أرسل بدوره السفارات الى أوروبا ولعل أهم هذه السفارات التى

---

(٤) Thenaud : op. cit. P XLIV

(٥) Ibid : P. XLIV

أرسلها الى البابا جوليوس الثانى Julius II (٦) . ردا على مهاجمة السفن البرتغالية ــ لكالكت مما ترتب عليه كساد التجارة فى مصر والبندقية ــ فضلا عن مهاجمة داجاما ١٥٠٣ لسفينة هندية تحمل حجاجا هنودا جاءوا من ساحل المليبار لتأدية فريضة الحج ، ولذلك قرر الغورى تقديم شكوى الى البابا ضد ملكى أسبانيا والبرتغال (٧) . ولما كان البابا جوليوس الثانى سياسيا ماهرا فقد استقبل بعثة الغورى وان لم يستجب لمطالبها (٨) .

أرسل الغورى فرا مورو دى سان Fra Mauro Di San الى البابا فى عام ١٥٠٤ ــ وكانت شكواه تتلخص فى الفظائع التى يرتكبها الأسبان فى حق المسلمين والمغاربة ــ وأبلغ مبعوث الغورى البابا بتهديدات السلطان بالقضاء على المسيحيين فى دولته ، غير أن البابا رفض التدخل رسميا بين الغورى وأسبانيا، ولكن لخوفه فى الوقت نفسه من تهديدات الغورى أمر « فرا مورو » باطلاع ملكى أسبانيا والبرتغال على تهديدات الغورى ويذكر « تينو » بأنه لم يطلع على رد ملك أسبانيا ، أما ملك البرتغال « ايمانويل » فقد أجاب البابا بقوله « اننى أتشوق لرؤية اليوم الذى تدمر فيه الكعبة وقبر محمد فى

---

(٦) لعب البابا جوليوس الثانى (١٥٠٣ ــ ١٥١٣) دورا هاما فى الحروب الايطالية فحاول لويس الثانى عشر عزله بسبب مؤامراته ضد فرنسا ولكن دعوته قوبلت بالاستنكار فى أوروبا فقد اراد البابا أن يعيد للبابوية هيبتها بعد فترة حكم اسكندر السادس الذى اشتهر بمغامراته النسائية ولذلك زج بنفسه فى المشكلات السياسية .

(٧) Thenaud : op. cit. P. LIV

(٨) عبد العزيز نوار ، عبد الحميد البطريق : **التاريخ الاوروبى من عصر النهضة الى أواخر القرن الثامن عشر** القاهرة ١٩٨٢ ص ٧١ .

المدينــة » وطــالب ايمانويل البابا بتــكوين حلف من الأمــراء المسيحيين لمحاربة المسلمين . وقد أطلع فرا مورو كلا من البابا والغورى على رد ملك البرتغــال . لذلك قرر الغورى اتخــاذ عدة اجراءات ضد المسيحيين فى بلاد الشام فما كان منه الا أن القى القبض على عدد كبير منهم وباعهم فى أسواق الرقيق . وقد علل تينو هذه الخطوة من جانب الغورى بأنها « كانت لارهاب ملكى أسبانيا والبرتغال » (٩) .

وجدير بالذكر أن الغورى حاول التحالف مع البندقيــة ضــد الخطر البرتغــالى ، وكان من الطبيعى أن تتفق مصــالح البنادقة مع الغورى لأن احتكار البرتغال للتجارة هدد مصالح البندقية فحاولت تحريض القوى الأوروبية ضد البرتغال ، ولكن الدول الأوروبية لم تقبل أن تتخلى عن التعامل مع البرتغــال ، خاصة وانها قامت بتزويد الأسواق الأوروبية بالسلع الشرقيــة والبهار بأســعار تنافس أسعار البندقيــة مما أدى الى تدفق التجار الأوروبيين خاصة الألمــان على لشبونة للحصــول على التوابل (١٠) .

ولمواجهة الخطر البرتغالى قرر الغورى بناء عدد من السفن لحماية البحر الأحمر والحجاز من اعتداءات السفن البرتغاليــة فأرسل بعثة الى البندقية عام ١٥٠٧ ، اتفقت على شراء الأخشاب اللازمة لصناعة السفن ، فضلا عن حصولها على موافقة البنادقة على امداد الغورى بالمدافع (١١) .

---

(٩) Thenaud . op. cit. P. XLVI LI

(١٠) د. سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٣٣٣ .

(١١) Clement, R : Le Français D'Egypte aux XVII et XVIII siécles Le Caire 1960 PP. 1 — 2.

أما فرنسا فقد بدأت اتصالاتها بالغوري في عهد لويس الثاني عشر (١٢) الذي أراد الحصول على امتيازات تجارية من الغوري واتفق القنصل الفرنسي في مصر فيليب بيريه مع الغوري على عقد معاهدة تجارية عام ١٥٠٧ تضمن حرية التجارة للفرنسيين في مصر ، وحق رسو سفنهم ، كما تضمن لهم حرية التجول في البلاد ، والبيع والشراء في المناطق التي يرغبون في الذهاب اليها ، وعدم جواز معاقبة واحد منهم بذنب ارتكبه غيره أو الانتقام منهم فيما يفعله القراصنة وأن يتولى القنصل شئون القضاء بين الفرنسيين وأن يكون له حق التجارة وان يكون للفرنسيين الحق في ارتياد كنائسهم المعروفة في الاسكندرية (١٣) . غير ان اتفاق عام ١٥٠٧ م لم يكتب له التنفيذ وذلك لأن العلاقة تأزمت بين الطرفين فبينما كانت هناك خمس سفن فرنسية تقل بعض المغاربة وعلائلاتهم من الاسكندرية الى المغرب ، واثناء ابحار السفن الفرنسية اعترض طريقها فرسان رودس ، ولذلك امر الغوري بألقاء القبض على القنصل الفرنسي فيليب بيريه ، كما امر ببيع بعض الفرنسيين في الاسكندرية في أسواق الرقيق ، وقد حاول بريه تهدئه الغوري وتبرئة الفرنسيين من التواطؤ مع فرسان رودس غير أن الغوري لم يقتنع (١٤) .

هذا وقد أزداد التوتر بين الغوري والأوروبيين بعد كارثة اغراق السفن المصرية التي تعاقد الغوري على شرائها من البندقية وكان عددها ٢٨ سفينة ، اذ هاجمها فرسان رودس

---

(١٢) **لويس الثاني عشر** (١٤٩٨ ـ ١٥١٥) من أسرة الفالوا التي حكمت من ١٣٢٨ حتى ١٥٨٩ .

(١٣) Clement : Op. Cit., P. 2.

(١٤) Thenaud : Op. Cit., PL XIII.

عام ١٥١٠ م ، واغرقوا عددا كبيرا منها واحرقوا ما تبقى ، فالقى الغورى القبض على جميع التجار الأجانب فى مصر وسوريا وصودرت بضاعتهم . وفشلت محاولات الملك لويس الثانى عشر للتدخل واصلاح الموقف المتردى ولكنه فشل ، فأرسل الى السلطان بايزيد بعثه برئاسة « مونت جوى » Montjoye مطالبا منه بالوساطة بينه وبين الغورى ، ولم يكتف الملك لويس الثانى عشر بطلب وساطة الدولة العثمانية فحسب بل سعى لاصلاح الموقف مرة ثانية مع الغورى فارسل بعثة فى عام ١٥١٢ م ، الى القاهرة برئاسة « جيلبر شوفو » Guilbert Chauveau (١٥) .

ولتسوية الموقف مع الغورى ارسل لويس الثانى عشر بعثته الشهيرة اليه برئاسة أندريه لى روى André Le Roy ولا توجد وثائق لهذه البعثة سوى ما ذكره الرحالة « تينو » المصاحب لها فقد سافر بصحبة لى روى من فرنسا الى القدس الى ايطاليا ومنها الى الاسكندرية ثم القاهرة ولما كان الغرض الرئيسى لبعثه لى روى هو تحسين صورة الفرنسيين أمام الغورى ، وتسوية العلاقات بين الدولتين ، فقد أكد لى روى للغورى بأن فرنسا لا علاقة لها بما اقترفه فرسان رودس من جرم واغراقهم السفن المصرية ، كما طالب بالافراج عن القنصل الفرنسى فيليب بيريه والتجار الفرنسيين وقد أحسن الغورى استقبال هذه البعثة وأبدى استعداده لمد يد الصداقة الى فرنسا مرة أخرى (١٦) .

ويمكننا القول أن الهدف الرئيسى من اتصالات لويس

---

(١٥) Ibid : PL XIII.

(١٦) Ibid :

الثانى عشر بالغورى هو تنشيط التجارة الفرنسية وذلك لأن فرنسا عانت منذ اواخر القرن الرابع عشر من الاضطرابات المالية ولذلك لم يكن الحل أمام الحكومة الفرنسية سوى التوسع التجارى فى الشرق وان كانت سياسة الانفتاح التجارى على الشرق قد ظهرت بصورة أوضح منذ القرن السابع عشر (١٧) .

مصر ولاية عثمانية

انسمت العلاقة بين الدولة العثمانية والمماليك بالود تاره وبالتوتر تارة اخرى ، فعندما سقطت القسطنطينية احتفل السلطان اينال فى القاهرة رسميا بهذا النصر ، على حين ان القلق قد سيطر على العثمانيين عندما استولى المماليك فى عهد السلطان بارسباى عام ١٤٢٤ على جزيرة قبرص ، وفى عهد بايزيد الثانى حدث نزاع على الحدود بين الدولتين فى أعالى الشام ، كذلك لجأ الأمير جم منافس بايزيد فى الحكم الى مصر فى عهد قايتباى فنشبت الحرب بين الطرفين عام ١٤٨٥ م ، وأغار العثمانيون على طرطوس الا أن قايتباى هزمهم وعقد معهم صلح عام ١٤٩١ م (١٨) .

وفى عهد السلطان الغورى اتجه العثمانيون بفتوحاتهم نحو الشرق ، بعد أن كانت هذه الفتوحات تتركز فى البلقان ، وكان

---

(١٧) The New Cambridge : Modern History 1493 — 1520 Cammbridge 1961 Vol. 1 P. 313.

(١٨) محمد أنيس : **الدولة العثمانية والشرق العربى ١٥١٤ — ١٩١٤** القاهرة ١٩٨١ ص ١٠٨ .

الشرق محل اهتمام سليم ايام كان واليا فى طرابزون فقد شغله الخطر الصفوى وامتداد المذهب الشيعى الى الأناضول الى حد تأثر بعض الأمراء العثمانيين بهذا المذهب (١٩) ولذلك ركز سليم حروبه على محاربة القزلباش فى الأناضول (٢٠) كذلك اتجه الى فارس وهزم الصفويين فى موقعة جالديران ٢٣ أغسطس عام ١٥١٤ م واستولى على تبريز (٢١) .

اتسمت العلاقة بين سليم والغورى بالود أحيانا والوعيد أحيانا أخرى وكانت هناك مراسلات سرية بين السلطان سليم وخاير بك نائب الغورى فى الشام اتسمت بالصداقة . وقد حذر سيباى نائب دمشق الغورى وأطلعه على مراسلات خاير بك مع السلطان سليم ولكن الغورى لم يتخذ أى اجراء ضد خاير بك (٢٢) .

ثم توترت العلاقة بين الغورى وسليم بسبب التنافس على امارة ذى القدر فى أعالى الشام وقيام سليم الأول بالاستيلاء عليها ١٥١٥ م ، فأجار الغورى الفارين من سليم فرد عليه السلطان العثمانى باغلاق سوق الرقيق وكان مصدر قوة المماليك (٢٣) .

---

(١٩) الأمير ان شهنشاه ومراد ابنا الأمير احمد شقيق السلطان سليم .

(٢٠) أصدر المفتي حمزة أفندى فتوى بوجوب قتل الشيعة لانهم خارجون على الدين .

(٢١) محمد فريد : **تاريخ الدولة العلية العثمانية** . القاهرة ١٩١٢ م ص ٧٥ .

(٢٢) احمد فؤاد متولى : **الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له** . القاهرة ١٩٧٦ م ص ١٠١ .

(٢٣) محمد أنيس : المرجع السابق ص ١١٠ .

وفى عام ١٥١٦ م توجهت القوات العثمانيه نحو بلاد الشام فطلب الغورى من الخليفه العباسى أبى عبد الله المتوكل على الله الثالث وقضاه المذهب السنى الأربعه الاستعداد لمصاحبته فى سفره الى حلب • وبينما كان الغورى يقوم بالاستعداد لمواجهة القوات العثمانيه أرسل خاير بك نائب حلب رسالة الى الغورى يؤكد له فيها ان سليم ينوى محاربه الفرس (٢٤) ولكن الغورى تحرك من مصر الى الشام فى ١٥ ربيع الآخر ٩٢٢ هـ (١٨ مايو ١٥١٦) بعد ان اناب عنه طومان باى ووصل السلطان الغورى الى حلب ودارت المراسلات بينه وبين سليم الذى حاول خداعه واظهار حسن نواياه ولكن الغورى ادرك هدف سليم والتقت القوات العثمانيه والمملوكيه فى مرج دابق فى ٢٤ أغسطس عام ١٥١٦ م • وقدم ابن زنبل الرمال وصفا للمعركة أوضح فيه مدى قوة الجيش العثمانى « فلما اتضح النهار ركبوا كالبحر الزاخر فاذا صفوف العثمانية قد بانت صفا صفا بعد صف ، ارجا من الوصف والاعلام الملونة من اليسار والميمنة وهم سائرون كالبحر السيال والمحيط الميال وقد رتبوا الصف من كل طرف » (٢٥) •

وكان النصر حليف العثمانيين وقتل الغورى وبفضل خيانة نوابه جان بردى غزالى نائب حماه ، وخير بك نائب حلب سقطت المدن السورية (٢٦) فأسرع الأمراء فى مصر باختيار طومان باى سلطانا خلفا للغورى ، ثم زحف سليم من بلاد الشام

---

(٢٤) احمد متولى : المرجع السابق ص ١٢١ •

(٢٥) ابن زنبل الشيخ أحمد الرمال : آخرة المماليك • تحقيق عبد المنعم عامر • القاهرة ١٩٦٢ م ص ٢٧ •

(٢٦) محمد انيس : المرجع السابق ص ١١٠ •

الى مصر فوصل الصالحية فى ١٦ يناير ١٥١٧ م ومنها الى بلبيس والخانكة ٢٠ بناير وفى ٢٢ يناير ١٥١٧ م التقى الجيشان المملوكى والعثمانى فى الريدانية . وسقط فى المعركة الصدر الأعظم سنان باشا ، وهرب طومان باى الى طره بينما دخل سليم القاهرة فى ٢٦ يناير ١٥١٧ م التى اشتدت فيها المقاومة فقتل العثمانيون عددا كبيرا من المماليك وسكان المدينة ، كما أمر سليم باحراق المنازل التى تحصن بها المماليك ، وهرب طومان باى الى البهنسا فى صعيد مصر ثم اتجه الى الاسكندرية ثم دارت بينه وبين العثمانيين عدة اشتباكات أسفرت عن هزيمته وتفرقت قواته ، فهرب عند شيخ العرب حسن بن مرعى الذى سلمه الى السلطان سليم وتم اعدامه على باب زويلة وظلت جثته معلقة ثلاثة أيام ثم دفنت فى حوش المدرسة التى بناها السلطان الغورى ، وولى السلطان سليم يونس باشا على مصر (٢٧) .

ويذكر ابن اياس عن مصر « أنه منذ عهد عمرو بن العاص رضى الله عنه لم يفتحها أحد من الملوك بعد عنوة سوى سليم شاه بن عثمان » (٢٨) . وأثنى ابن اياس على شجاعة طومان باى فى القتال حتى أن سليم « أعجب به واشيع بين الناس بأنه سوف يرسله الى مكة ولن يقتله » ثم يضيف « لم يسمع بمثل هذه الواقعة فيما تقدم من الزمان وأن سلطان مصر شنق على باب زويلة قط ، ولا علقت رأس السلطان على باب زويلة ولم يعهد بمثل هذه الواقعة فى الزمن القديم » (٢٩) .

---

(٢٧) أحمد متولى : المرجع السابق ص ٢١٧ — ص ٢٢٠ .

(٢٨) ابن اياس : **بدائع الزهور فى وقائع الدهور** ، حققها محمد مصطفى من ٩٢٢ هـ الى ٩٢٨ هـ — ١٥١٦ — ١٥٢٢ م جـ ٥ القاهرة ١٩٦١ م ص ١٥٢ .

(٢٩) المرجع السابق ص ١٧٥ : ١٧٧ .

أما ابن زنبل فيذكر عن طومان باى انه « لم يظهر فى حياته شيء من الأفعال الرديئة ابدا ، لا شرب خمر ولا زنا ولا فواحش ابدا ، كان قليل الشهامة لا يظهر شيئا مما يفعله اهل التجبر والعنف، وكان الغالب على حاله السكينة والوقار ، وكان غالبا على نفسه ، رزينا فى أحواله ، لين الكلمة ذا انخفاض ، كثير الرحمة والشفقة على كل أحد ، حتى انه لما ظهرت منه هذه الفراسة والشجاعة فى قتال السلطان سليم صار الناس يتعجبون منه غاية التعجب ولم يكن أحد يظن أنه بهذه الصفة » (٣٠) .

وبعد مقتل طومان باى مكث سليم حوالى شهر فى القاهرة زار آثارها ومساجدها ووزع العطايا وحضر الاحتفالات خاصة احتفال فتح الخليج الناصرى ثم حضر احتفال المحمل الشريف وأرسل الصرة الى الحجاز وأثناء وجوده فى مصر سلم له شريف مكة مفاتيح الحرمين (٣١) .

هذا واذا كنا فى مقام الحديث عن ما ذكره المؤرخون عن شجاعة طومان باى فانه لا يفوتنا أن نعرض ما ذكره عنه الرحالة الفرنسى تيفيه Thevet الذى قدم وصفا دقيقا لطومان باى أثناء اقتياده الى المشنقة فذكر « انه كان هادئا رأسه مرفوعة ، صعد الى منصة الاعدام بخطى ثابتة ، وبموته فقدت مصر رجلا من خيرة رجالها » (٣٢) .

---

(٣٠) ابن زنبل : المرجع السابق ص ١٤٥ .

(٣١) على حسونة : **تاريخ الدولة العثمانية** ـ دمشق ١٩٨٢ م ص ٥٨

(٣٢) Andre Thevet : **Voyages en Egypte-Cosmographie du Roi** Le Caire 1984 P. 35.

ثانيا ــ الاتصالات الفرنسية العثمانية
فى القرن السادس عشر

اتصالات اسرة الفالوا بسليمان القانونى وخلفائه

حكمت أسرة الفالوا فرنسا من عام ١٣٢٨ حتى ١٥٨٩ م (٣٣) ، وقد انشغلت هذه الأسرة لفترة طويلة من حكمها بالحروب الايطالية التى بدات منذ عام ١٤٩٤ م وانتهت ١٥٥٩ م . أى أن هذه الحروب استغرقت خمسة وستين عاما ، وكانت مظهرا من مظاهر التنافس الدولى بين فرنسا واسبانيا من أجل السيطرة على أوروبا ، وكانت ايطاليا هى المبدان الرئيسى للصراع بين الدولتين (٣٤) .

ويمكن تقسيم فترة الحروب الايطالية الى مرحلتين متميزتين المرحلة الأولى بدات من عام ١٤٩٤ الى عام ١٥١٥ م وتميزت هذه المرحلة بالحملات العسكرية الفرنسية على ايطاليا خاصة فى عهد كل من شارل الثامن ولويس الثانى عشر ، اما المرحلة الثانية فبدات من عام ١٥١٥ م وانتهت عام ١٥٥٩ م بتوقيع صلح كاتو كمبرسيس الذى انهى الحروب الايطالية ،

---

(٣٣) انتقل الحكم بعد ذلك الى أسرة البوربون .

(٣٤) عبد العزيز الشناوى : أوروبا فى مطلع العصور الحديثة طبعة القاهرة ١٩٧٥ جـ ١ ص ١٧٠ .

وامتازت هذه المرحلة بالصراع بين أسرة الفالوا وأسرة الهابسبورج خاصة عندما انتخب شارل الأول ملك أسبانيا امبراطورا للدولة الرومانيــة المقدســة ١٥١٩ م ولقب بشــارل الخـامس Charles Quint (٣٥) .

والذى يهمنا من هذه الحروب هو تأثيرها على الاتصــالات الفرنسية العثمانية : فقد انتهجت فرنسا سياسة جديدة غريبة على المجتمــع الأوروبى فى تلك الفترة الا وهى الاتصــال بل والتعاون مع الدولة العثمانيــة المسلمة وعقد الاتفاقات معهـا وذلك لمؤازرتها فى حروبها ضد أسبانيا ، بالاضافة الى رغبتها فى حصول رعاياها على امتيازات فى الشرق خاصــة بعد أن توسعت الدولة العثمانية وبسطت سيطرتها على البحر المتوسط وأصبحت تمثل قوة عسكرية كبيرة فى القرن السادس عشر (٣٦) .

تبدأ المرحلة الأولى من الحروب الايطالية ١٤٩٤ ــ ١٥١٥ م بغزو شارل الثامن لايطاليا ، وقد نجح فى بداية الأمر فى اقنـاع البابا وحكام جنوه والبندقية بأن الغرض الرئيسى من حملتـه العسكرية أن تكون ايطاليا مركزا لعملياته العسكرية ولمشروعه الصليبى الكبير الا وهو الزحف على البلقان ثم الاستيلاء على القسطنطينية وبلاد الشام وبيت المقدس وأكد لهم ثقته فى تحقيق مشروعه الكبير وتكوين دولة صليبية فى المشرق الاسلامى (٣٧) .

ولكن سرعان ما أدركت القوى الأوروبية والبابا أن هدف شارل الثامن هو بسط سيطرته على ايطاليا بالفعل ، فتكونت

---

(٣٥) المرجع السابق : ص ١٧٤ ــ ص ١٧٧ .

(٣٦) Clement : Op. Cit., P. 4.

(٣٧) محمد فريد : المرجع السابق ص ٧٠ .

الأحلاف ضده لمنعه من تنفيذ مخططه (٣٨) ولكن شارل الثامن تمكن من احتلال جنوه وفلورنسا وبيزا ودخل روما ١٤٩٤ مدعيا حقه فى وراثة عرش نابولى وميلان (٣٩) .

والذى يهمنا من هذا الصراع هو الاتصالات التى دارت بين الأمير جم (٤٠) شقيق السلطان بايزيد الثانى (٤١) والبابا اسكندر السادس لمساعدته فى تولى الحكم بدلا من أخيه ولكن البابا بعد أن زحفت قوات شارل الثامن على ايطاليا فضل مهادنة بايزيد فأرسل اليه بطلعه على مشروع ملك فرنسا طالبا منه المساعدة وارسال القوات الى ايطاليا (٤٢) وبدخول شارل الثامن روما سلم البابا جم الى القوات الفرنسية بناء على طلبهم ، وذلك لأن شارل الثامن اعتقد أنه يمكنه الاستفادة منه فى حملاته وقد صاحب جم القوات الفرنسية ولكنه ما لبث ان توفى فى ١٤٩٥ وقيل ان البابا دس له السم (٤٣) .

وجدير بالذكر أنه رغم غزوات شارل الثامن لايطاليا الا أنه

---

(٣٨) زينب راشد : **تاريخ أوروبا الحديث** . القاهرة ١٩٨٦ جـ ١ ص ٣٠٤ .

(٣٩) المرجع السابق ص ٣٠٤ .

(٤٠) نافس جم أخيه بايزيد الثانى على الحكم وقد نجح الأخير فى الحاق الهزيمة به فى يكى شهر ١٤٨١ ففر من البلاد وأقام فترة فى مصر لدى السلطان قايتباى ثم أقام فى رودس ـ واتصل بالبابا اسكندر السادس فى روما ، على أمل أن يساعده ضد أخيه . وعندما دخلت القوات الفرنسية روما سلم البابا جم الى شارل الثامن .

(٤١) تولى بايزيد الثانى ١٤٨١ ـ ١٥١٢ وقد عرف ببايزيد الصوفى لكثرة المسالمة وميله الى السلم وحبه للعلوم .

(٤٢) محمد فريد : المرجع السابق ص ٧١ .

(٤٣) المرجع السابق ص ٧٢ .

اضطر للانسحاب من البلاد وتوفى عام ١٤٩٨ دون أن يحقق أية مكاسب لبلاده . تم تولى الحكم ابن عمه لويس الثانى عشر (١٤٩٨ ــ ١٥١٥) وفى عهده تجددت الحروب الانطالية ونجحت فرنسا فى السيطرة على شمال ايطاليا . وقد تميزت هذه الفترة بالنزاع بين لويس الثانى عشر والبابا جوليوس الثانى خاصة وأن ملك فرنسا اراد تنحية البابا عن منصبه وتقوية نفوذ الكنيسة الفرنسية ولذلك وصفه معاصروه بانه « جلب العار للكنيسة » (٤٤) .

وقد تميزت هذه الفترة بانصالات لويس الثانى عشر مع الغورى ومحاولته تقوية الصلات التجارية بين فرنسا ومصر فأرسل البعثات الى المماليك كما ذكرنا من قبل (٤٥) .

وبتوقيع صلح ١٥١٤ انتهت المرحلة الأولى من الحروب الايطالية وفشلت فرنسا فى احراز أى توسع اقليمى فى ايطاليا (٤٦) .

وتبدأ المرحلة الثانية من الحروب الايطالية من عام ١٥١٥ حتى ١٥٥٩ م وتمتاز هذه الفترة بالاتصالات المكثفة بين فرنسا والدولة العثمانية خاصة فى عهد فرانسوا الأول (١٥١٥ ــ ١٥٤٧) وهنرى الثانى (١٥٤٧ ــ ١٥٥٩) .

---

(٤٤) Cambridge : Op Cit., PP. 80 — 84.

(٤٥) Clement : Op. Cit., P. 5.

(٤٦) بمقتضى صلح ١٥١٤ تزوج لويس الثانى عشر الاميرة مارى شقيقة ملك انجلترا هنرى الثامن ــ فشلت فرنسا فى بسط سيطرتها على ايطاليا بينما نالت اسبانيا مواقع هامة فى نابولى ونافار واقتسمت ميلان مع السويسريين وظفر البابا بالسيطرة على مدونيا .

لقد تجددت الحروب الايطاليــة فى عهد فرانسوا الأول ، الذى نجح فى تحقيق الانتصارات على التحالف الذى تكون من الامبراطورية الرومانية المقدســة والبابوية واسبانيا وانتصر على قواتهم فى معركة مارينيان عام ١٥١٥ واستولى على ميلان ، ولكن التنافس أشتد بينه وبين ملك اسبانيا خاصــة بعد وفــاة ماكسمليان امبراطور الدولة الرومانية المقدسة عام ١٥١٩ اقرشح فرانسوا الأول نفســه لهذا المنصب كذلك شــارل الأول ملك اسبانيا الذى تم انتخابه امبراطورا باسم شارل الخامس (٤٧) .

ولمــا كان فرانسوا الأول يؤمن ان تحقيق مجد اسرة الفالوا لن يتحقق الا باحراز الانتصارات على الهابسبورج كان من الطبيعى ان يشتد النزاع بينه وبين شــارل الخامس (٤٨) ولذلك بدأ اتصالاته مع الدولة العثمانية لمساندته ضد عدوه كذلك قام بغزو ايطاليا عام ١٥٢٤ م ولكنه وقع أسيرا فى معركة بافى ١٥٢٥ (٤٩) .

والواقع أن الاتصالات بين فرانسوا الأول وسليمان ازدادت خلال فترة أسره بل ان زوجته لويز أرسلت سفيرا الى استانبول لطلب النجدة من الدولة العثمانيــة . ولكنه لم يتمكن من اكمال رحلته اذ القى القبض عليه فى البوسنة وقتل (٥٠) . فأرســل فرانسوا سفيرا آخرا هو جان فرنجيــانى ١٥٢٥ الى استانبول طالبا من السلطان أن يهاجم ملك المجر احد حلفاء شارل الخامس حتى يمنعه من تقديم المساعدة له . وقد أحسن سليمان استقبال

---

(٤٧) عبد الرحيم عبد الرحمن : التاريخ الأوروبى الحديث والمعاصر . دار الكتاب الجامعى ص ٧١ .

(٤٨) زينب راشــد : المرجع السابق جـ ١ ص ١٠٢ .

(٤٩) المرجع السابع ص ١٠٢ .

(٥٠) محمد فريد : المرجع السابق ص ٨٤ .

السفير الفرنسي (٥١) في ٦ ديسمبر ١٥٢٥ واجزل له العطاء ووعده بمحاربة المجر (٥٢) . هذا وقد قدم سليمان القانوني المساعدات القيمة لفرنسا اثناء اسر ملكها مما اغضب الدول الأوروبية واعتبرت الاتصالات الجارية بين فرنسا والدولة العثمانية « وصمة عار في جبين فرنسا » لأنها اتصلت بالمسلمين ، ولذلك كان شارل الخامس حريصا على اجتذاب الدول الأوروبية في صفه خاصة بريطانيا والتنديد « بموقف فرنسا المزرى » (٥٣) وأكد أنه سيعمل على اعداد حملة صليبية جديدة للقضاء على الدولة العثمانية (٥٤) .

وقد اطلق سراح فرانسوا الأول بعد اجباره على توقيع معاهدة مدريد ١٥٢٦ التي تنازل فيها عن ادعاءاته في ميلان وجنوه ونابولي وفلاندر وارتو (٥٥) ونظرا للمساعدات القيمة التي قدمها سليمان القانوني لفرنسا أثناء أسر ملكها ، قيل ان فرانسوا الأول كان ينوى زيارة استانبول لتقديم الشكر الى

---

(٥١) أرسل سليمان رسالة الى فرانسوا الأول يعده بالمساعدة « أعلمتنا ان عدوكم استولى على بلادكم وأنكم الآن محبوسون وتستدعون من هذا الجانب مدد العناية بخصوص خلاصكم ، وكل ما قلتموه عرض على أعتاب سرير سدتنا الملوكانية وأحاط به علمي الشريف على وجه التفصيل فصار بتمامه معلوما فلا عجب من حبس الملوك وضيقهم فكن منشرح الصدر ولا تكن مشغول الخاطر » محمد فريد ص ٨٥ .

(٥٢) المرجع السابق ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٥٣) Gran, J : A history of Europe 1949 — 1610 London 19 PP. 213 — 216.

(٥٤) الشناوى : المرجع السابق جـ ١ ص ٢٩١ .

(٥٥) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ٧٤ .

السلطان العثمانى ولكنه أحجم عن تنفيذ هذه الزيارة خوفا من رد الفعل الأوروبى (٥٦) .

استمرت الاتصالات بين فرانسوا الأول وسليمان القانونى بعد اطلاق سراحه خاصه وان الدوله العثمانية أصبحت تسيطر على البحر المتوسط . وفى ١٥٢٨ جددت فرنسا الامتيازات التى حصلت عليها فى عام ١٥٠٧ من الغورى فى عهد لويس الثانى عشر ولم يتم تطبيقها . وحققت معاهده ١٥٢٨ الأمن للتجار والرعايا الفرنسيين مع التعهد بعدم التعرض لكنائسهم وعدم فرض ضرائب عقاريه عليهم وعدم عرقلة النشاط التجارى لسفنهم فى موانى مصر والشام وأوضح اتفاق ١٥٢٨ مدى قوه العلاقة بين الدولتين خلال هذه الفترة وينسحب ذلك على العلاقات السياسية والتجارية معا (٥٧) .

واستمرت الاتصالات السياسيه بين الدولتين خاصة بعد ان تمكن سليمان القانونى من هزيمه ملك المجر فى معركة موهاكس ١٥٢٩ فرشحت فرنسا حنا زابوليا من اسرة مجرية فوافق السلطان العثمانى على هذا الترشيح وفى الوقت نفسه رشح امبراطور الدولة الرومانية أخاه فرديناند ملكا على المجر وقسمت المجر الى ثلاثة اقسام قسم تابع للدولة العثمانية وآخر لحنا زابوليا والثالث لفرديناند ملك النمسا وترجع اهمية هذه المعركة بالنسبة لفرنسا الى انها ارادت مهاجمة حلفاء شارل الخامس فى المجر والتى مثلت آخر حاجز يحول بين الدولة

---

(٥٦) Dyer, Arthur Hassall :Modern Europe 1525 — 1585 London 1901 Vol. II P. 102.

(٥٧) Clement : Op. Cit., P. 2.

العثمانية ووسط أوروبا فاتفقت مصلحة الدولتين على احكام السيطره العثمانيه على المجر (٥٨) .

ورغم توقيع صلح كابرى ١٥٢٩ بين فرنسا والدوله الرومانيه المقدسه وانتقال السيادة فى شبه الجزيرة الايطالية الى شارل الخامس ، الا أن الحروب سرعان ما اندلعت مرة ثانية بين الدولتين (٥٩) وأرسل فرانسوا الأول السفير الفرنسى رنسون الى استانبول فأحسن سليمان القانونى استقباله باحتفال لم يسبق لسفير غيره ووعده بمحاربة شارل الخامس وامداد فرنسا بكل ما تحتاج اليه من سفن وعتاد (٦٠) .

وقد تجدد الصراع من جديد بين الدولتين من اجل ايطاليا عندما خلا عرش ميلان فطمعت كل منهما فى الحصول عليه وأرسل فرانسوا الأول بعثه لافوريه De La Forest الى استانبول ، وتم الاتفاق على تقديم المساعدة لفرنسا اثناء غزو فرانسوا الأول لايطاليا فتقوم قواته بغزو شمال ايطاليا ويتجه منها نحو لمبارديا — فى الوقت نفسه تقوم القوات العثمانية بغزو جنوب ايطاليا (٦١) . ولم تناقش بعثة لافوريه الأمور السياسية فحسب وانما وقعت البعثة اتفاقا هاما منح فيه رعايا وتجار فرنسا العديد من الامتيازات التى شملت حق التجول والاتجار وأجازت المبادلات الاقتصادية دون ضرائب وصار للقنصل الفرنسى فى استانبول والاسكندرية حق التحاكم ، وأصبح لا يحق للقضاة العثمانيين الحكم على رعايا وتجار فرنسا

---

(٥٨) الشناوى : المرجع السابق جـ ١ ص ٢٧٣ .

(٥٩) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ٧٤ .

(٦٠) محمد فريد : المرجع السابق ص ٨٨ .

(٦١) Dyer : Op Cit., PP 130 — 131.

بناء على سكاوى الأهـالى الا فى حضور الصدر الأعظم ، كذلك منع حجز الأسرى بصفة رفيق ، وحق السفن الفرنسية فى الرسو فى الموانى . ولا يجوز تفتيشها الا فى أماكن معينة (٦٢) وكان هـذا الاتفـاق أكثر شمولا (٦٣) من اتفـاق ١٥٢٨ وقـد جدد ١٥٦٩ و ١٥٨١ ـ ١٥٩٧ ـ ١٦٢٤ ـ ١٧٣٩ (٦٤) .

وقد نفذ سليمان القانونى تعهداته لفرانسوا الأول فأرسـل القائد البحرى بربروسا على ظهر مائة سفينة للالتحاق بقوات الأدميرال بلانكار Blancard لدخول ريفولى (٦٥) . ولكن البابا بول الثانى اراد ايقاف النزاع بين الطرفين عام ١٥٣٨ (٦٦) .

وفى عام ١٥٤١ استأنف فرانسوا الأول الحرب ضد شارل الخامس فأرسل المسيو رنسون الى استانبول ليتفق مع سليمان على الترتيبات النهائيـة للتحـالف بين الدولتين الا أن المبعوث الفرنسى قتل فى ميلان بايعاز من شارل الخامس ، الذى أراد قتله لعله يجد رسائل معه من فرانسوا الأول يوجد بها ما يمس الدين المسيحى فينشرها بين ملوك وأمراء أوروبا ضـده ولكنه لم يجد شيئا (٦٧) . وحل المسيو بولان محل رنسون كسفير فى استانبول وطلب المساعدة من سليمان فوعده بارسال خير الدين الذى رافق بولان الى مارسيليا ونيس فحاصرها عام ١٥٤٣ وقام خير الدين

---

(٦٢) على حسونة : المرجع السابق ص ٦٨ .

(٦٣) يمكن مراجعة معاهدة الامتيازات فى محمد فريد : الدولة العلية .

(٦٤) الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها القاهرة ١٩٨٠ جـ ١ ص ٧٨ .

(٦٥) Dyer : Op. Cit., P. 131.

(٦٦) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ٧٥ .

(٦٧) محمد فريد : المرجع السابق ص ١٠٠ .

بالعديد من العمليات العسكرية فى ساحل كالابريا فى ايطاليا كما اشتركت قواته مع القوات الفرنسية فى مهاجمه المدن الايطالية وفى عام ١٥٤٤ وقع فرانسوا الأول معاهدة كرسبى مع شارل الخامس فعاد خير الدين الى استانبول (٦٨) .

وفى عام ١٥٤٧ أرسل فرانسوا الأول السفير الفرنسى درامون D'Aramont لتجديد علاقات الود والصداقه مع الدوله العثمانية ، وهى الرحلة الشهيرة التى سجلها الرحالة الفرنسيون (٦٩) .

هذا وقد توفى فرانسوا الأول عام ١٥٤٧ م وخلفه ابنه هنرى الثانى (١٥٤٧ - ١٥٥٩) الذى عمل على اثارة البروتستنت ضد شارل الخامس وهاجم الحدود الألمانيه عام ١٥٥٢ واستولى على فردان ومنز وفشل الامبراطور شارل الخامس فى انتزاع متز منه واضطر للتنازل عن العرش لأخيه فرديناند ليخلفه على العرش الامبراطورية الرومانية فى النمسا وألمانيا بينما تولى ابنه فيليب عرش أسبانيا والأراضى المنخفضه والممتلكات الأسبانية فى العالم الجديد عام ١٥٥٥ (٧٠) .

وقد واصل فيليب الثانى ملك أسبانيا الحرب فى ايطاليا ونجح فى الحاق الهزيمة بفرنسا عام ١٥٥٧ م واصبح الطريق مفتوحا الى باريس خاصة بعد هزيمة سانت كونتان . ولكن سرعان ما عقد صلح أو معاهدة كاتو كمبرسيس عام ١٥٥٩ م بين أسبانيا وفرنسا بعد حرب طويلة انتهت بتنازل فرنسا عن ميلان

---

(٦٨) نوار : المرجع السابق ص ٨٠ .
(٦٩) انظر الفصل الثانى .
(٧٠) زينب راشد : المرجع السابق ص ١٠٣ .

ونابولى لأسبانيا وسافوى وبيدمنت واحتفظت فرنسا بالأسقفيات الثلاث متز — تول — فردان — وتزوج فيليب الثانى ملك أسبانيا بالأميرة اليزابيث ابنة هنرى الثانى ملك فرنسا — وانهت هـذه المعاهدة المنازعات الطويلة بين أسرتى الفالوا والهابسبورج والتى كانت ايطاليا مسرحا لها (٧١) .

وجدير بالذكر أن هنرى الثـانى احتفظ بصـلات والده الوطيدة مع الدوله العثمانيه فأبقى دراموں سـفيرا لفرنسـا فى استانبول . كذلك حـذى حذو والده بالتحـالف مع سـليمان القانونى أثناء حربه ضد شارل الخامس فعقد معاهـدة فى أول فبراير عام ١٥٥٣ نصت على تعهد سليمان القانونى بارسال السفن البحرية الى هنرى الثانى لمساعدته ضد شارل الخامس فى خلال أربعة أشهر ويمكن لسليمان القانونى أن يستولى على ممتلكات شارل الخامس وبالفعل ساهمت القوات العثمانية فى الحرب الدائرة بين فرنسا وشارل الخامس فقامت السفن العثمانيـة بهجمات على ساحل كلابريا « وكانت هذه آخر دفعة حارب فيها العثمانيون والفرنساويون كتفا لكتف لتغير الظروف والأحوال حتى أتت حرب القرم » (٧٢) .

وبعد وفـاه سـليمان القانونى تولى ابنـه سليم الثـانى (١٥٦٦ — ١٥٧٤) فوطد صلاته بفرنسا وأرسل المبعوثين الى ملك فرنسا يخبره بتوليه شئون الحكم .

كذلك تجددت الامتيازات التى منحت للفرنسيين من قبل وقد جددت فى عهد شارل التاسع (٧٣) .

---

(٧١) نوار : المرجع السابق ص ٨٠ ، ٨٤ .

(٧٢) محمد فريد : المرجع السابق ص ١٠٤ .

(٧٣) De Hammer, J. : **L'Empire Ottoman.** Paris 19 Tome 6 P. 7.

وعلى الرغم من استمرار العلاقات الوطيدة بين الدولة العثمانية وفرنسا الا انه عندما انهزمت الدولة فى معركة ليبانتو عام ١٥٧١ وتحطم أسطولها لم تتحرك فرنسا لتقديم يد المساعدة لها ولم يحصل العثمانيون من الفرنسيين سوى على « التمنيات القلبية الطيبة » ضد التحالف المقدس الذى اقيم ضدهم (٧٤) .

وفى عهد مرادخان الثالث (١٥٧٤ ــ ١٥٩٦) تجددت معاهدة الامتيازات مع فرنسا عام ١٥٨١ وأجبرت السفن الأجنبية على حمل الاعلام الفرنسية فيما عدا سفن البندقية (٧٥) غير أن بريطانيا مع آواخر القرن السادس عشر بدأت هى الأخرى تحصل على امتيازات لتجارها فى أملاك الدولة العثمانية فقد تأسست عام ١٥٨١ شركة الليفانت البريطانية للتجارة والتى كانت تتولى ترشيح السفراء البريطانيين فى استانبول وتدفع لهم الرواتب وظل هذا التقليد ساريا حتى عام ١٥٨٣ وهو تاريخ تنفيذ الامتيازات (٧٦) .

ونظرا لتحسن العلاقات السياسية بين فرنسا والدولة العثمانية توافد الرحالة الفرنسيون على مصر ولكن البعض منهم لم يرحب بالتقارب الفرنسى العثمانى خاصة جريفان افاجار ــ وكان من رجال الدين ــ فقد فضل شن الحملات الصليبية على الدولة العثمانية بدلا من التحالف معها واستنكر تورط فرنسا فى الحروب الايطالية وكتب بعد عودته من مصر قائلا « انه من الأفضل لفرنسا أن تسعى للاستيلاء على مصر بدلا من سديها

---

(٧٤) Dyer : Op. Cit., Tome II P. 343

(٧٥) Clement : Op. Cit., P. 4.

(٧٦) الشناوى : المرجع السابق الدولة العثمانية جـ ٢ ص ٧١٢ .

للحصول على دوقية ميلان ويجب الا يتورط المسيحى فى قتال اخيه المسيحى كما حدث فى ايطاليا ومن الأفضل توجيه جهود فرنسا للاستيلاء على مصر ، والتى يمكن الاستيلاء عليها بسهولة » (٧٧) .

ثالثا ـ العلاقات الفرنسية العثمانية فى القرن السابع عشر :

تميز القرن السابع عشر باتجاه فرنسا نحو الشرق وحرصها على كشف أسراره وارسال البعثات التبشيرية ، وتقوية الصلات التجارية لفتح أسواق جديدة . ولعب وزراء فرنسا دورا كبيرا لتحقيق هذه السياسة ففى عام ١٦٢٦ م أصبح الوزير ريشيليو رئيسا أعلى للبحرية والتجارة وأسس ١٦٣٨ شركة فرنسا الجديدة فى العالم الجديد ولم يكتف ريشيليو بتوجيه اهتمامه للتجارة وانما حرص على اعلاء شأن أسرة البوربون فى أوروبا واضعاف نفوذ أسرة الهابسبورج القوية وقد حذا مزران حذوه وحرص على رفع مكانة الملك لويس الرابع عشر فى أوروبا ـ وأدرك وزراء فرنسا أن تفوقها التجارى سيتبعه بالضرورة تفوقها السياسى (٧٨) .

ورغم ما بذله ريشيليو ومزران لتنمية التجارة وفتح أسواق جديدة الا أن الاهتمام الحقيقى بالتجارة كان فى عهد الوزير كولبير Colbert الذى بدأ سلسلة من الاصلاحات الاقتصادية أثناء الستينيات من القرن السابع عشر ، فاهتم بتنشيط الصناعة والتجارة وانشئت العديد من الشركات التجارية فى حوض البلطيق

---

(٧٧) Clement : Op. Cit., P. 5 --- 6.

(٧٨) زينب راشد : المرجع السابق ص ١٧٨ .

والبحر المتوسط والهند الترقية والعالم الجديد ، وشجع الملك لويس الرابع عشر هذه السياسة حتى أنه ساهم بأمواله فى هذه الشركات وشجع النبلاء على الاسهام فيها (٧٩) . واستتبع الاهتمام بالتجارة نمو البحرية التجارية والأسطول الفرنسى وكانت خطة كولبير أن يمتد النفوذ التجارى الفرنسى حتى الشرق الأقصى (٨٠) .

وجدير بالذكر انه فى الوقت الذى سعت فيه فرنسا للانفتاح على الشرق توترت علاقاتها مع الدولة العثمانية خلال القرن السابع عشر وذلك بعد التقارب الفرنسى العثمانى الذى شهده القرن السادس عشر .

غير أن السنوات الأولى من القرن السابع عشر قد شهدت بداية طيبة للعلاقات الفرنسية العثمانية ففى عام ١٦٠٤ وفى عهد السلطان أحمد خان نجح السفير الفرنسى فرانسوا سافارى دى بريف (François Savary De Brèves) فى تجديد الامتيازات التى حصل عليها الفرنسيون منذ عام ١٥٣٦ مع احتفاظهم بحرية التجارة بشرط دفع الضرائب فى الجمارك . وقد اجتهد السفير الفرنسى طوال فترة عمله فى استانبول لتقوية النفوذ الفرنسى واضعاف النفوذ البريطانى (٨١) .

ثم بدأت العلاقات بين الطرفين تتسم بطابع التوتر عندما قدم أحد موظفى السفارة الفرنسية فى الآستانة المساعدات لنبل

---

(٧٩) المرجع السابق ص ١٩٠ .

(٨٠) Deschamps : **Histoire de La question Coloniale** France Paris 1891 P. 140.

(٨١) Carré : Op. Cit., P. 20.

من بولونيا وساعده على الفرار من سجنه فأمر السلطان مصطفى خان بسجن الكاتب والمترجم والسفير الفرنسي ولم يفرج عنهم الا بعد تولى عثمان خان الذى حاول اعادة العلاقات الودية مع فرنسا فأرسل بعثته عام ١٦١٨ الى الملك لويس الثالث عشر برئاسة حسين جاويش يعتذر له عما لحق السفير الفرنسى من اهانة (٨٢) .

ثم انشغلت الدولتان حتى منتصف القرن السابع عشر باضطراب أحوالهما الداخلية فبالنسبة للدولة العثمانية ساد الاضطراب فيها بسبب تكرار عزل السلاطين (٨٣) أما فرنسا فقد انشغلت بحرب الثلاثين عاما والتى انتهت بتوقيع صلح وستفاليا عام ١٦٤٨ كذلك ركز الساسة الفرنسيون خلال هذه الفترة على اضعاف شأن الهابسبورج فى أوروبا . وقد أدى انشغال فرنسا بأحوالها الداخلية الى ضعف نفوذها لدى الباب العالى ، حتى أن البندقية حصلت على حق حماية الكنائس المسيحية فى غلطة فى عهد مراد الرابع ولم تدافع فرنسا عن امتيازاتها فى بيت المقدس فآلت الى اليونانيين (٨٤) .

وفى عهد السلطان محمد خان (١٦٤٨ ـ ١٦٨٧) ازداد التوتر بين الدولة العثمانية وفرنسا فقد تم اكتشاف رسالة أرسلها دى لاهاى Da La Haye فى استانبول الى البندقية وكانت فرنسا تقدم لها المساعدات سرا أثناء دفاعها عن كريت ضد

---

(٨٢) محمد فريد : المرجع السابق ص ١٢٩ .

(٨٣) مصطفى خان ١٦١٧ عزل ١٦١٨ ـ عثمان خان عزل ١٦٢٥ ـ تولى مصطفى ١٦٢٢ ـ ١٣٩ مراد الرابع ١٦٣٩ ـ ١٦٤٠ ـ ابراهيم الأول ١٦٤٠ ـ ١٦٤٨ .

(٨٤) محمد فريد : المرجع السابق ص ١٢٩ .

القوات العثمانية ، ووقعت الرسالة فى يد كوبريللى الصدر الآعظم عام ١٦٥٩ فاستدعى السفير الفرنسى الذى رفض الحضور وأرسل ابنه بدلا منه فقام الوزير بسجنه واضطر دى لاهاى للذهاب الى الآستانة لانقاذ ابنه ولكنه رفض فك رموز الرسالة . ولما علم الوزير الفرنسى مزارن أرسل الى الآستانة سفيرا فرنسيا فوق العادة وهو دى بلندل، ومعه خطاب من الحكومة الفرنسية يطلب فيه عزل الصدر الأعظم والاعتذار عن احتجاز السفير الفرنسى فلما رفض الصدر الأعظم محتويات الرسالة ساعدت فرنسا كريت جهارا وامدتها بأربعة آلاف جندى فرنسى (٨٥) . وفضلا عن ذلك فقد أمدت النمسا بالمال للانتقام من السلطان محمد خان اثناء حصاره لقلعة نوهزل ولكن كوبريللى احمد باشا نجح فى الاستيلاء على القلعة عام ١٦٦٣ فطلب امبراطور النمسا ليوبولد النجدة من أمراء اوروبا وطلب وساطة البابا اسكندر السابع لطلب المساعدة من لويس الرابع عشر ملك فرنسا فأمده بستة آلاف جندى فرنسى وأربعة وعشرين من حلفائه الألمان ولكن كوبريللى أحمد احتل سرنوار على نهر راب وتوغلت قواته فى قلب الجيش النمساوى عام ١٦٦٤ وتدخلت فرنسا لنجدة النمسا فى موقعة سان جوتار وبعد عدة مراسلات تم ابرام الصلح بين الطرفين (٨٦) .

وحاول كولبير اصلاح العلاقات بين البلدين فأرسل سفيرا فرنسيا للتقرب من الدولة العثمانية ولكنه أساء الاختيار لأنه كلف دى لاهاى السفير السابق بهذه المهمة فرفض كوبريللى أحمد تجديد الامتيازات التجارية الفرنسية بل حرم فرنسا من مرور

(٨٥) محمد فريد : المرجع السابق ص ١٣٢ .

(٨٦) المرجع السابق ص ١٣٤ .

بضائعها من مصر الى السويس الى الهند ومنح جنوه امتيازات مثل بريطانيا فسارعت فرنسا بمساعدة كانديا التى كانت تحاصرها القوات العثمانيــة لمدة عامين . ويذكر الرحالة الفرنسى الأب كوبان بأن لويس الرابع عشر عرض على البابا تكوين حلف صليبى ضد الأتراك ووضـــع ليبنى Leibniz مشروعـا لغزو مصر ولكن لويس الرابع عشر لم يحـاول تنفيذ المشروع لأنه كان حريصـا على الامتيازات التى يحصل عليها الفرنسيون فخشى أن يفقدهـا نهائيـا (٨٧) .

وفى عام ١٦٧٠ أرسل لويس الرابع عشر السفير دى نوانتل Nointel على ظهر سفينة كبيرة الى الآستانة لارهاب الصـدر الأعظم لتجديد الامتيازات ولكن الأخير أكد للسفير الفرنسى أن الامتيازات العثمانية « منحة سلطانيــة » وليست «معاهـدات اضطرارية » واجبة التنفيذ فازدادت العلاقات توترا بين الطرفين لولا تدخل كولبر الذى استطاع بسياسة اللين تارة والخضـوع تارة أخرى ارضاء الدولة فجددت الامتيازات عام ١٦٧٣ وحصلت فرنسا من جديد على حق حماية بيت المقدس وتحسنت العلاقــة بين الطرفين (٨٨) . ويذكر الأب كوبان أن الامتيازات الفرنسية جددت بعد جهد طويل وبعد العديد من المفاوضات والبعثات الى أن نجح الســـفير الفرنسى جيردان Girardin عــام ١٦٧٣ فى تجديدها (٨٩) .

هـذا وعلى الرغم من توتر العلاقـات بين فرنسـا والدولة العثمانية فى القرن السابع عشر الا أن هذا القرن شهد اهتماما

---

(٨٧) Coppin, J. :Les Voyages de Jean Coppin 1639 — Le Caire 1971 P. 3.

(٨٨) محمد فريد : المرجع السابق ص ١٣٦ .

(٨٩) Coppin : Op Cit., P. 4.

كبيرا بعلوم الشرق فترجم De Ryer القرآن الكريم الى الفرنسية ، واهتم الرحالة الفرنسى Thevenot بجمع المخطوطات وتأسست فى فرنسا فى عام ١٦٩٧ المكتبة الشرقية وشجع كولبير هذا الاتجاه وأسست كراسى للغات فى كلية فرنسا فأسس كرسى للغة العربية والتركية والفارسية ومن أشهر من عمل فيها فانييه Vatier الذى عمل أستاذا للغة العربية ، وشجع كولبير الرحلات الى الشرق الى فارس والهند ومصر وحرص على ارسال البعثات التبشيرية مثل بعثات الكابوسين(٩٠).

وسعيا وراء توطيد الصلات مع الشرق أصدر كولبير أوامره بتأسيس مدرسة للترجمة لكى يعمل خريجوها كوسطاء بين القناصل والسفراء الفرنسيين والأتراك ـ فتم تأسيس Enfants De Langue للحصول على ترجمة دقيقة وذلك فى ١٧ نوفمبر ١٦٦٩ وتم الاتفاق مع الآباء الكابوسين فى بيرا وازمير على ارسال ثمانية عشر طفلا تتراوح أعمارهم بين التاسعة والعاشرة لكى يتعلموا فى اديرة هؤلاء الرهبان اللغة العربية والتركية ثم يتم توزيعهم بعد ذلك على اسكالات الشرق وقد عمل بعضهم أساتذة للغة العربية (٩١) فى الكلية الملكية الفرنسية وفى كلية لويس لى جران (٩٢) واهتم آخرون بالاستشراق وعينوا فى مدرسة اللغات الشرقية ومنهم أيضا من عمل مترجما الملك فرنسا (٩٣) .

---

(٩٠) Carré : Op. Cit., PP. 14 --- 15.

(٩١) من هؤلاء De Flennes عمل مترجما فى الاسكندرية والقاهرة ١٦٩٥ م ثم أصبح أستاذا للغة العربية ١٧٣١ م فى كلية لويس لى جران .

(٩٢) Clement : Op. Cit., PP. 70 --- 71.

(٩٣) احمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٣٧ .

وشـهد القرن السـابع عشر ارسـال البعثات الدينيـة الى الشرق وخاصـة بعثـات الكابوسـين . وطـلب الأب Pacifique De Provens عـام ١٦٠٩ من البابا ارسـال البعثات الكابوسينة الى الشرق وحصـل من البابا جريجورى الخامس عشر على اذن بتأسيس بعثتـه فى استانبول تم اقنع البابا بارسال المزيد من البعثات الى ازمير وصيدا ومصر وأرسلت البعثات الى حلب وبغداد وفارس وانصب اهتمام الكابوسين فى مصر على تحويل أقباطهـا الأرثوذكس الى المذهب الكاتوليـكى وحاولوا ارسال بعثات الى الحبشة لنفس الغرض وقد تحدث كوبان وغيره من الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر خـلال القرن السابع عشر عن تواجد الأباء الكابوسيين فى القاهرة ورعاية القناصل الفرنسيين لهم (٩٤) .

اسـكالة مصر :

هذا وقد اعتبر الفرنسيون اسكالة مصر من أهم اسـكلات الشرق وقد تولى رعاية مصالح الفرنسيين قنصل فى القاهرة (٩٥) وعين نوابا عنه فى الاسكندرية ودمياط ورشيد . وكان معظم القناصل الفرنسيين من أقليم بروفانس أو مارسيليـا . وقـد اتسمت اداراتهم بالسوء وعدم النظام ولم يتقنوا فن الادارة ، ثم دخل القناصل الفرنسيون فى صراع فيما بينهم استمر لمدة ثلاثين عاما سجله الرحالة الفرنسيون الذين زاروا مصر خـلال القرن السابع عشر فقد ظلت القنصلية فى عائلة دى بريف لعدة

---

(٩٤) Clement : Op. Cit., PP 21 --- 24.

(٩٥) كان البنادقة أول من اقاموا لهم قنصـلا فى الاسكندرية ١٣٤٦ وكان القنصل الفرنسى يتولى منصبه من الاسكندرية بينما استقر نوابه فى القاهرة ولكن أصبحت القاهرة هى مقر القناصل الفرنسيين .

سنوات وفى عام ١٦٣٢ استأجر فليبار دى برمون Philbert De Bremond القنصلية فى مصر لمدة ست سنوات من القنصل دى بريف ولكن فى عام ١٦٣٤ أصدر الملك أمرا بتنحية دى برمون لاتهامه بالاختلاس وأوكلت شئون القنصلية الى تاجر بندقى هو سانتو سيجيزى Santo Seghessi ولكن دى برمون ظل يقدم التماساته للملك حتى أعاده لوظيفته عام ١٦٣٥ فنشب صراع بين القنصلين دى برمون الذى يريد استعادة نفوذه وسانتو سيجيزى وانقسم التجار الفرنسيون الى فريقين وضغط أتباع سانتو لدى الباشا كى لا يستقبل دى برمون ولا يعترف به وتم حل هذه المشكلة بتعيين كريستوف دى بريمون قنصلا ولكن سانتو ظل يعمل فى القاهرة مع التجار الايطاليين وأصبح قنصلا لليونانيين غير انه أخذ يدس لكريستوف دى بريمون القنصل الجديد لدى الباشا ثم جاء تعيين كابر قنصلا للفرنسيين ليضيف صراعا جديداً بين كابر وعائلة دى بريمون عام ١٦٤٢ وانقسم التجار من جديد وسجل مونكونى أثناء زيارته للقاهرة هذا الصراع الدائر بين القناصل والذى لم ينته واستمر الى أن قام كولبير باصلاحاته المعروفة (٩٧) فقد لجأ القناصل الى الدس لبعضهم البعض لدى الباشا فى مصر ، ولدى السفير الفرنسى فى استانبول ، ولدى غرفة تجارة مارسيليا ، وأعضاء برلمان اكس ، ولدى الملك مما أدى الى اضطراب التجار وسوء الأحوال فى اسكالة مصر .

---

(٩٦) Clement : Op Cit., PP. 53 --- 59.

(٩٧) لم تهدأ الاحوال بتعيين كريستوف دى بريمون فقد نافسه بير دانطوان ثم عزل كريستوف وعين أونوريه بريمون ١٦٥٦ ثم فرانسوا دى بيج ان ان انوريه دى بريمون نجح فى انتزاع القنصلية منه وظل قنصلا حتى وفاته ١٦٧٠ .

واخيرا لقد شهد القرن ١٧ اهتماما كبيرا من قبل الحكومة الفرنسية باسكالات الشرق خاصة اسكالة مصر وظلت الاسكالات مستقلة عن الملوك حتى عهد لويس الرابع عشر مما أدى الى انتشار الفوضى لأن الرقابة كانت ضعيفة على القناصل وانحصر اهتمامهم فى البحث عن الثروة وتضاعفت ديون الاسكالات خاصة اسكالة مصر حتى بلغت الديون مائتى الفا قرشا فى عام ١٦٦١ ولذلك بدأ كولبير سلسلة من الاصلاحات فأسس عام ١٦٦٤ مجلس التجار (٩٨) ثم جعل لغرفة تجارة مارسيليا كيانا مستقلا يشرف عليها ثلاثة قناصل واربعة أعضاء من التجار وثمانية مستشارين والزم اعضاء الغرفة بالاجتماع يومين اسبوعيا لدراسة كل ما يتعلق بالتجارة (٩٩) .

تم اصبح لزاما على أى تاجر يريد التجارة من الشرق أن ينتمى لغرفة مارسيليا لينال منها رخصة تمكنه من مزاولة نشاطه والتمتع بحماية دولته والتاجر الذى يرخص له بالسفر يجب الا يقل سنه عن اربعة وعشرين عاما وكانت الغرفة تدفع للقناصل رواتبهم ويرفعون اليها تقاريرهم وهم مسئولون أمام السفير الفرنسى فى استانبول (١٠٠) .

وجدير بالذكر أن اهم ما شغل كولبير واهتم به كان موضوع ديون الاسكالات فعمل على تقسيطها ودفعها . وكان الدائنون من الأتراك واليهود واصدرت غرفة تجارة مارسيليا فى ٢٦ مارس

---

(٩٨) شارك فى هذا المجلس جان سافارى الذى ألف كتابا اعتبر دليلا للتجارة بعنوان :

Parfait Negociant

(٩٩) Clément : Op. Cit., P. 67.

(١٠٠) أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٣٤ .

عام ١٦٦٩ اعلانا بفرض ضريبة على السفن المتجهة الى مصر لتسديد ديون فرنسا لمصر . وفى عام ١٦٧٤ أعلن القنصل الفرنسى دى بونكورس أن ديون فرنسا لمصر قد قلت بدرجة ملحوظة . واهتم كولبير بتسديد الديون للسلطات الحاكمة أولا ثم اليهود ثم الفرنسيين الذين قبلوا تقسيط الديون لحكومتهم على مدى خمس سنوات . كذلك أراد كولبير تفادى دفع الغرامات التى كانت تفرض على القناصل فطلب من السفير الفرنسى فى استانبول دى نواتل عام ١٦٧٠ (١٠١) أن يصدر أوامره الى القنصل الفرنسى فى مصر بضرورة تفادى الغرامات فقد كان باشوات مصر يفرضون الغرامات على القناصل وتعرض الكثيرون منهم للضرب والسجن (١٠٢) حتى ان كوبان الذى عين نائب قنصل فى دمياط كتب فى رحلاته أنه هو نفسه تعرض للسجن عدة مرات ولم يفرج عنه الا بعد دفع الغرامة المفروضة (١٠٣) .

وفى عام ١٦٨١ اصدرت وزارة البحرية الفرنسية تنظيما للاسكالات وقواعد لادارتها منها ، حق القنصل فى ترحيل أى مواطن بسبب سوء سلوكه ، وحقه فى اصدار كافة الأحكام القضائية مع الاستعانة بأربعة أعضاء من النبلاء وعدم أحقيته الاستدانة باسم فرنسا (١٠٤) .

ونتج عن اصلاحات كولبير أن القناصل أصبحوا موظفين ملكيين ، يتبعون الملك وهو الذى يعينهم بعد أن أخذ رأى غرفة تجارة مارسليا ومحافظ بروفانس ، وحرم عليهم الاشتغال

---

(١٠١) Clément : Op. Cit., P. 69.

(١٠٢) أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٣٨ .

(١٠٣) Coppin : Op. Cit., P. 332.

(١٠٤) Clément : Op. Cit., P. 70.

بالتجـارة أو جباية اية رسـوم من التجـار وقرر لهم رواتب ثابتـة (١٠٥) .

وكان نجاح كولبير عام ١٦٧٣ فى تجديد الامتيازات نصرا كبيرا للتجار الفرنسيين فقد أعقبه تخفيض النسبة التى يدفعونها فى الجمارك فانخفضت الى ٣٪ بعد أن كانت ٢٠٪ فى الاسكندرية و ١٠٪ فى بولاق (١٠٦) .

ونظرا لأهمية اسكالة مصر فقد أرسـل الوزير شيجنيلى دورتيير Dortieres لزيارة مصر والتعرف على مشـاكل الاسكالة فيها واقنع دورتيير باشا مصر بالابقاء على نسبة الاعفاء المقررة للتجار الفرنسيين فى استانبول (١٠٧) .

ثم أصـدر الوزيـر بونشرتران Ponchartrain عدة أوامر لتنظيم عمل القناصل عام ١٦٩١ منها عدم أحقيـة القنصل فى أن تكون له حقوق على المنشآت الفرنسية ، ومنع القنصل وخدمه وضباطه من العمل بالتجارة ، والا دفع غرامة كبيرة . ثم حدد الوزير فى أوامر أخرى صـدرت عـام ١٦٠٤ مصاريف الاسـكالات وأوجه الانفـاق على المترجمين والخـدم والمنازل (١٠٨) .

وأخيرا لقد حرص الرحالة الفرنسى كوبان على القاء الضوء على المشـاكل التى عانت منها اسكالة مصر خاصـة ما يتعلق منها بالمنازعات بين القناصل .

---

(١٠٥) أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٣٥ .

(١٠٦) Clément : Op. Cit., P. 76.

(١٠٧) Ibid : P. 79.

(١٠٨) Ibid : P. 79.

الفصـــل الثـــانى

تعريف بالرحالة الفرنسيين

تقلصت العلاقة بين الشرق الاسلامى وأوربا بعد انتهاء الحروب الصليبية التى تركت أثرا مريرا فى نفوس المسلمين وانحصرت الصلات بين الطرفين على النواحى التجارية خاصة خلال القرنين الثالث عشر والخامس عشر (١٠٩) ثم أدى التوسع العثمانى فى البلقان الى تكوين الأحلاف المسيحية لوقف هذا التوسع ، كذلك استمرت الحملات الصليبية على شمال افريقيا خاصة بعد ضياع الأندلس من المسلمين . ورغم وجود الصلات التجارية بين الشرق وأوربا الا أن التجار الأوروبين عاشوا على هامش المجتمعات الاسلامية وانعدمت العلاقات الاجتماعية بين الطرفين وساعد على ذلك تجمعهم فى حى خاص بهم تغلق أبوابه ليلا . وقد ساعد على انقطاع الصلات بين الطرفين ان البلاد العربية كانت حافلة بالمراكز الاسلامية مثل الأزهر والقيروان ودمشق وقد أطلق الأوروبيون عليها الكليات الملحقة بالمساجد فلم يشعر المسلمون خلال تلك الفترة بحاجاتهم الى الاتصال بالغرب (١١٠) .

وعلى الرغم من أن الحروب الصليبية قد تركت أثرا كبيرا فى نفوس المسلمين بعد تجربتهم مع الغرب الأوروبى الا أن ذلك لم

---

(١٠٩) احمد عزت عبد الكريم : **دراسات فى تاريخ العرب الحديث** القاهرة ١٩٧٠ ص ١٥ .

(١١٠) عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق . **الدولة العثمانية** ، جـ ٢ ص ٧٢٤ .

يمنع من قدوم بعض الرحالة الى مصر (١١١) فى الفترة الواقعة بين القرنين الثانى عشر والسادس عشر ، غير أن هذه الرحلات اتسمت بالطابع الفردى ولم يحرص أصحابها على تسجيل مشاهدتهم ، وهو ما يفسر لنا ندرة الكتابات الأوروبية عن القاهرة (١١٢) .

وقد عبر الرحالة الفرنسى جان تينو عن أسفه لعدم وجود اعداد كبيرة من الرحالة الذين زاروا مصر قبل القرن السادس عشر وما ترتب على ذلك من ندرة الكتابات الأوروبية عن مصر . فذكر « أن معلوماتنا نادرة وقليلة عن توران شاه وحملات بيبرس وقلاوون والأشرف خليل والناصر محمد ولكنه ارجع سبب انقطاع الرحالة عن مصر والشرق الى الاضطرابات التى نتجت عن الحروب الصليبية والتى أدت الى انصراف الحجاج والمسافرين عن الشرق وعن زيارة الأماكن المقدسة وأكد أن الذين زاروا مصر خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر « كانوا اما مدفوعين

---

(١١١) أهم هذه الرحلات خلال هذه الفترة ، رحلة الكونت دى فلاندر رينو دى شاتييون فى عام ١١٧٧ .

Comte De Flandre, Renaud De Chatillon

ورحلة الطبيب دى ماندفيل الى سيناء عام ١٣٣٦

Liégeois Jean De Mandeville

ورحلة مزييار الى سيناء عام ١٣٤٧ Phiilippe Des Mézières

ورحلة القس هوج عام ١٣٦٠ Huges

وفى عام ١٣٨٩ رحلة فيليب دارتوا Philippe d'Artois

وفى عام ١٣٩٥ رحلة البارون شامبونوا Champenois

وفى عام ١٤٢٢ - ١٤٨٥ رحلة جورج لنجيران Georges Lengheraud.

(١١٢) Jean Maire Carré : Voyageurs et écrivains en Egypte le Caire 1932. Tome 1 P. 2.

بعاطفة دينية جياشة لزيارة الأماكن المقدسة ، أو تجاراً سعوا وراء المغامرة والربح الوفير » (١١٣) .

وجدير بالذكر أن القرن السادس عشر قد شهد اتصالات أوروبية جديدة بالشرق ومحاولات لدراسته والتعرف على أحواله ففي أوائل هذا القرن أمر البابا جوليوس الثاني بتأسيس مطبعة عربية نشرت أول كتاب باللغة العربية وهو كتاب « صلاة سواعي » عام ١٥١٤ ، ثم انتقلت الطباعة العربية الى جنوه حيث نشر عام ١٥١٦ سفر الزابور بأربع لغات (١١٤) مع ترجمة لاتينية ثم انتقلت الطباعة العربيه الى البندقية وطبع القرآن الكريم باللغة العربية عام ١٥٣٠ ثم توالى نشر العديد من الكتب العربية في المطابع الايطالية وأكثرها كتب دينية ، وذلك لحاجة البعثات التبشيرية الكاثوليكية لها في الشرق كذلك نشرت كتب علمية منها « كتاب البستان في عجائب الأرض والبلدان » طبع في مطبعة الآباء اليسوعيين في روما عام ١٥٨٤ ، وكتاب مبادىء اللغة العربية ، وكتاب « نزهة المشتاق في ذكر الامصار والآفاق » للادريسي عام ١٥٩٢ وقانون ابن سينا في الطب . أما المطبعة الملكية بباريس فطبع بها أول كتاب وهو « صناعة النحو » لجبرائيل الصهيوني ، ثم انتشرت الطباعة العربية في العواصم الأوروبية وتوالى صدور الكتب العربية (١١٥) .

وفي القرن السادس عشر ظهرت أولى الكتابات الهامة عن مصر باللغة الفرنسية سجلها الرحالة الفرنسيون الذين زاروا مصر خلال هذه الفترة . وتم تداول هذه الكتابات من قصر الى قصر

---

(١١٣) Jean Thenaud : Op Cit., P. 7.

(١١٤) العبرية ـ اليونانية ـ الكلدانية ـ العربية .

(١١٥) أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٩٠ ، ٩١ .

ومن كنيسة الى كنيسة وبقى البعض منها مخطوطا حتى تم طباعته . وتمثل هذه الكتابات وثائق تاريخية وحضارية هامة . فقد اعتبر الفرنسيون أن اكتشاف مصر والشرق مغامرة محببة اليهم لأن « الشرق كان بعيدا عنهم بعد النجوم فى السماء » (١١٦).

ويعتبر جان تينو هو أول من زار مصر من الرحالة الفرنسيين فى مطلع القرن السادس عشر ، أى قبيل وقوعها فى يد الدولة العثمانية وقد زارها تينو مع بعثة السفير الفرنسى أندريه لى روى الذى أوفده الملك لويس الثانى عشر الى قانصوه الغورى . وقد وضع تينو كتابا سجل فيه مشاهداته فى الشرق وخصص الفصول الأخيرة منه عن سيناء والأماكن المقدسة وعن القاهرة وكان الغرض الرئيسى لبعثه لى روى هو رغبة لويس الثانى عشر التقرب من الغورى خاصة وأن فرنسا خلال هذه الفترة كانت مشغولة بحروبها فى ايطاليا ونزاعها مع البندقية (١١٧) .

وقد أعجب تينو بالشرق ومصر حتى أنه ذكر « رغم ما كتبه العرب عن مصر والقاهرة الا أن كتاباتهم لا تضارع كتابات الأوروبيين عنها وذلك لأنها تعكس وجهة النظر الأوروبية » (١١٨).

ويعد جريفان افاجار Greffin Affagart وهو من رجال الدين ومن أثرياء مدينة مين — أول من زار مصر بعد أن أصبحت ولاية عثمانية ، وقد زارها فى عام ١٥٣٣ (١١٩) ومن الاسكندرية بدأ فى زيارة سائر المدن المصرية فزار رشيد والقاهرة ثم ذهب الى

---

(١١٦) Carré : Op. Cit., PP. 4 — 5.

(١١٧) Clément : Op. Cit., P. 5.

(١١٨) Thenanud : Op. Cit., P. 17.

(١١٩) Clément : Op. Cit., P 5.

القدس وعاد الى القاهرة مرة ثانيـــة لزيارة سيناء ، وأثناء عودته انتشر الطــاعون فى البلاد فتوجه الى دمياط ومنها الى طرابلس وسوريا وبيروت وبيت المقدس ثم سافر الى قبرص ومنهـا الى بلاده (١٢٠) .

وجدير بالذكر أن العديد من الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر فى القرن السادس عشر وكانوا من رجال الدين حرصـوا بعد تأديتهم فريضـــة الحج فى القدس على زيارة مصر حيث المزارات المسيحية الهامة . ففى ســيناء يوجـد جبل موسى وكنيســة سانت كاترين وفى مصر القديمة كنيسة أبى سرجة (١٢١) .

امـــا الطبيـب الفـــرنسى بير بيـــلون دى مـــان Pierre Belon De Mans ـ فكان عالمـا طبيعيا ـ قدم وصفا دقيقا للبيئة المصرية وزار مصر فى الفترة ما بين ١٥٤٧ ـ ١٥٤٩ ، وكذلك تجول فى آســـيا واليونان والجزيرة العربية وجدة . وقد تم تجميع رحلات بيلون بطريقة سيئة فلا أهميـــة لها من الناحية الأدبية ولكن ترجع أهميتها الى انها وصفت البيئات الطبيعية التى زارهـــا بيلون . وقــد نشر كتــابه عن الأســـماك عـــام ١٥٥١ Histoire des Poissons ، وفى عام ١٥٥٥ تم نشر كتابه عن العصافير Histoire de la nature des oiseaux أما كتابه الثالث فهو عن رحلاته الى الشرق نشر عام ١٥٥٥ Relation de Voyage وقد لقى بيلون تشجيعا من ملوك فرنســـا خاصة هنرى الثانى وشارل التاسع . وفى كتابـــه الذى خصص الجزء الثـــانى منه للحديث عن مصر والاسكندرية وعقد مقارنة بين رشيد والاسكندرية ذكر فيه أنه حرص أثنـــاء رحـــلاته على ارتداء مـــلابس رهبـــان

---

(١٢٠) Carré : Op. Cit., P. 6.

(١٢١) Ibid : P. 2.

الفرنسيسكان وذلك « لأن المسلمين أقل عداء تجاه رجال الدين من عدائهم للتجار والرحالة لأنهم يعتبرونهم باحثى ثروة » وقد زود بيلون كتبه بالرسوم والصور عن مظاهر الحياة الطبيعية التى شاهدها (١٢٢) .

هذا وقد قتل بيلون فى عام ١٥٦٤ فى غابة بولونى بعد أن هاجمه بعض اللصوص وتعتبر كتاباته أساسا لعلم الحيوان لأنها ركزت على وصف الحيوانات والنباتات (١٢٣) .

وخلال فترة تواجد بيلون فى الشرق زار مصر جان شسنو سكرتير السفير الفرنسى دارمون الذى كلفه الملك فرانسوا الأول بالتفاوض مع السلطان سليمان القانونى للتصدى لمخططات شارل الخامس فى البحر المتوسط فوصل دارمون الى استانبول عام ١٥٤٧ ــ وعندما توفى فرانسوا الأول خلفه ابنه هنرى الثانى فسعى بدوره لتجديد الصلات السياسية مع سلبمان القانونى فأرسل سفيرا جديدا هو دى فومبل De Fumel ، ولكن دارامون نجح فى ازاحته من طريقه بفضل اتصالاته وعلاقاته مع الوزراء فى استانبول ولم يقبل سليمان القانونى سوى التفاوض مع دارامون بوصفه الممثل الرسمى لفرنسا (١٢٤)) .

وأثناء وجود دارامون فى استانبول التقى بالطبيب الفرنسى بير بيلون الذى سبق الحديث عنه ، كذلك التقى برجل الدين

---

(١٢٢) Clément : Op Cit., P. 7.

(١٢٣) Pierre Belon de Mans : Le Voyage en Egypte 1547 Le Caire 1969. P. 3.

(١٢٤) Chesnau : Voyage de Sieur D'Aramont ambassadeur Pour Le Roy en Levant, faicts de Paris à Constantinople L'an 1547 et de Constantinople en Perse en l'an 1548 escripts par le Sieur d'Aramont. Le Caire 1984 P.3.

اندريه تيفيه ، وحسب أقوال الأخير لقى دارامون التشجيع من الأتراك وحصل على ثقة سليمان القانونى حتى إنه دعـاه لمرافقته فى حملاته العسكرية فى فارس ، وعندما وصل دارامون الى حلب فى ٨ يونيو ١٥٤٩ استأذن السلطان سليمان فى أن يسمح له بزيارة الأماكن المقدسة فى بلاد الشام وبعد أن أتم زيارته لبيت لحم انتهز الفرصة وتوجه الى مصر حيث استقبله فى القاهرة الوالى التركى على باشا فى أغسطس ١٥٤٩ . ومن القاهرة اتجه الى الاسكندرية حيث التقى بالقنصـل الفرنسى والتجار الأوروبيين ، ثم عاد الى دمشق ومنها الى استانبول فى ٢٨ يناير ١٥٥٠ م ، ومكث عاما فى العاصـمة التركيـة اقنع خـلاله السـلطان سـليمان القانونى بالاشـتراك مع هنرى الثـانى ملك فرنسـا فى مهاجمـة شارل الخامس . وعندما عاد دارامون الى فرنسا عام ١٥٥٢ « قوبل بالازدراء وذلك لقبوله التعاون مع المسلمين والاتصال بهم » (١٢٥) .

ونتوقف قليلا عند هذه العبارة التى ساقها شسنو سكرتير السفير الفرنسى ونتعجب من ازدراء الرأى العـام الفرنسى من سفيره بسبب اتصالاته مع الدولة العثمانية المسلمة التى لم يجد ملوك فرنسا انفسهم الحرج فى الاتصـال بها لمساعدتهم اثنـاء الحروب الايطالية والواقع أن هذه الروح العدائية تجاه الدولة العثمانية ظلت موجودة فى أوروبا وفرنسا نفسها هذا وقد أشرنا من قبل الى أن البابا جوليوس الثانى اعتبر الاتصـالات الفرنسية بالدولة العثمانية « عارا كبيرا » فقد تكونت فى القرن السادس عشر العديد من الحملات الصليبية ضد الدولة العثمانيـة على أمل استبعادها من البلقان .

والواقع أن دارامون السفير الفرنسى لم يسجل بنفسه رحلته

---

(١٢٥) Chesnau : Op. Cit., P. 8.

الى الشام ومصر بل قام سكرتيره شسنو بهذا التسجيل وظهرت في باريس خمس نسخ تحمل اسم « رحلة من باريس الى القسطنطينية » باسم شسنو
Voyage de Paris en Constantinople
توجد اربع نسخ فى المكتبة الوطنية فى باريس والنسخة الأخيرة فى مكتبة الارسينال (١٢٦) .

وعلى الرغم من أن أندريه تيفيه كان من رجال الدين الا أنه اهتم اهتماما كبيرا بالجغرافيا والقت كتاباته الضوء على جغرافية الشرق ومصر . أضف الى ذلك ان معظم كتاباته لها طابع عالمى ، اذ قدم من خلالها وصفا جغرافيا دقيقا للبلاد التى زارها ، مثل البرازيل واليونان وتركيا وجزر بحر ايجه وايطاليا فى الفترة ما بين عام ١٥٤٩ — ١٥٥٣ . وقد واتته فكرة زيارة الأماكن المقدسة فى بلاد الشام ومصر عندما كان فى ايطاليا عام١٥٤٩ وقابل الكاردينال دى لوربن De Lorraine الذى عرض عليه السفر الى الأماكن المقدسة وقد تقابل تيفيه مع السفير الفرنسى دارامون أثناء قيامه بعدة رحلات على البحر المتوسط خلال عام ١٥٥١ — ١٥٥٢ . وقد مكث فى مصر أربعة أشهر خلال شتاء عام ١٥٥٠ — ١٥٥١ فقدم وصفا عنها فى كتاباته التى غلب عليها الكتابات الاغريقية القديمة وذلك عندما حاكى كتابات كل من هيرودوت وديدرو وطابع كتابات رجال الكنيسة المسيحية مثل سانت أوجستين (١٢٧) .

هذا وقد وضع أندريه تيفيه ثلاثة كتب سجل فيها رحلاته ومشاهداته نشر الأول عام ١٥٥٤ م باسم Cosmographie du Levant

---

(١٢٦) Ibid : PP. 10 --- 15.

(١٢٧) Thevet, André : Voyages en Egypte 1549 --- 1552 Le C 1984 PP. 35 --- 40.

تناول فيه زيارته لاستانبول واليونان والبحر الأسود ومصر .
ورغم انه تناول فى كتابه الحديث عن جغرافية الشرق بصفة عامة
الا أنه خصص ثلاثة عشر فصلا عن مصر والاسكندرية وبدا
واضحا تأثره بكتابات هيرودوت وبلوتارك وسانت أوجستين
اذ سجل مشاهداته عن الطبيعة والحيوانات كذلك وصف الآثار
والحضارات القديمة . ويرجع الفضل الى فرانسوا دى بلفوريه
François De Belleforest صديق تيفيه فى كتابة كتاب تيفيه
عن الشرق أى ان تيفيه لم يكتب كلمة واحدة وانما ترك هذه
المهمة لصديقه بلفوريه ولكن تيفيه املى عليه ما شاهده وما درسه
فى الشرق وقد طبع الكتاب فى عام ١٥٥٤ فى ليون ثم ظهرت منه
عدة طبعات فى ليون عام ١٥٥٦ (١٢٨) .

اما كتاب تيفيه الثانى وهو عن جغرافية العالم
Cosmographie Universelle فقد نشره عام ١٥٧٥ م بعد أن
أصبح تيفيه الجغرافى الخاص بالملك هنرى الثالث وقد كتب
بنفسه هذا الكتاب وخصصه للحديث عن الجغرافية العالمية
وان كان قد حوى بعض الاخطاء الجغرافية وفى هذا الكتاب
خصص فصلا بأكمله تحدث فيه عن طومان باى « واكد انه لا يقل
مكانة عن صلاح الدين » وقد نشر هذا الكتاب فى أربعة أجزاء
مزودا بالرسوم خصص الجزء الثانى منه لمصر حيث أفاض فى
الحديث عنها فى عشرة فصول (١٢٩) .

اما كتاب تيفيه الثالث فكان عن الملوك Le Grand insulaire
et Pilotage d'André Thevet Comographie du Roy

---

(١٢٨) Ibid : P. 54.
(١٢٩) Ibid : P. 75.

وقد نشر هذا الكتاب عام ١٥٨٧ وفيه قدم أيضا وصفا عن جزر المحيط الهندى ــ والبحر المتوسط والفلبين وبحر ايجه وجزر المالديف وردس ، وسواكن وقدم وصفا لسكاوه وكتب عن رشيد (١٣٠) .

أما جان بالرن Jean Palerne فقد قام بزيارة مصر فى عام ١٥٨١ وطاف بالقاهرة ، والاسكندرية ، ورشيد ، وسيناء وقام بهذه الزيارة فى عهد الملك هنرى الثانى ، هذا وعلى الرغم من كونه من رجال الدين الا أنه كان شاعرا أيضا وله أشعار محفوظة فى المكتبة الوطنية بباريس (١٣١) .

وقد سجل بالرن رحلاته فى كتاب طبع عام ١٦٠٦ حوى البلاد التى زارها فى الشرق طرابلس الشام وسوريا والأراضى المقدسة فى بلاد الشام ، استانبول ــ مصر ومدنها : الاسكندرية ، رشيد ، ودمياط (١٣٢) .

ومع نهاية القرن السادس عشر زار مصر دى فيلامون عام ١٥٨٩ وكان من رجال الدين أيضا وحصل على اذن من البابا فى روما بزيارة الأماكن المقدسة فتوجه الى بلاد الشام وزار الشام ودمشق ولبنان ثم زار مصر واستغرقت رحلته فى مصر أربعة أشهر زار خلالها مدن الوجه البحرى ، وأثناء عودته وقع فى أسر المغاربة ، ولكنه نجح فى فك اسره وتوجه الى البندقية

---

(١٣٠) Thevet : Op. Cit., P. 82.

(١٣١) Poesies de Jean Palerne Forezien

(١٣٢) Palerne, Jean : Le Voyage de Jean Palerne Foresien Le Caire 1970. PP. 1 — 2.

ومنها الى فرنسا ، وقد نشر كتابه عام ١٥٩٥ م ثم توالت طبعات النشر فطبع حوالى ٢٦ طبعة فى ليون وروان وباريس (١٢٣) .

وهكذا نصل من خلال استعراض الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر فى القرن السادس عشر الى القول بأن معظمهم كانوا من رجال الدين وأنهم حرصوا على تأدية فريضة الحج فى بلاد الشام . أو زيارة المزارات المسيحية فى مصر سواء فى القاهرة أو مصر القديمة أو الاسكندرية أو صحراء سيناء فيلاحظ أن بعض هؤلاء الرحالة بالاضافة الى مهنتهم كرجال دين ـ قد كلفوا بمهام سياسية مثل جان تينو الذى اتصل بالغورى بناء على أوامر من لويس الثانى عشر ملك فرنسا كذلك سسنو سكرتير السفير الفرنسى دارامون وكان الغرض الرئيسى لدارامون هو الاتصال بالدولة العثمانية ولكنه استأذن سليمان القانونى لزيارة الأماكن المقدسة .

كذلك نلاحظ أن البعض منهم كان عالما طبيعيا ، كذلك كان منهم الجغرافى مثل اندريه تيفيه وكان منهم الشاعر والأديب مثل بالرن .

هذا وقد زار هؤلاء الرحالة مصر فى عهد أسرة الفالوا ابتداء من لويس الثانى عشر حتى هنرى الثالث ورحلاتهم جميعا تمت بعد أن أصبحت مصر ولاية عثمانية باستثناء جان تينو الذى زار مصر فى عهد الغورى .

وقد اقتصرت زيارة هؤلاء الرحالة على مدن الوجه البحرى مثل الاسكندرية ، دمياط ، رشيد ، القاهرة . وقدموا وصفا

---

(١٢٣) Le Seigneur De Villamont : Voyage en Egypte 1 Le Caire 1971. PP. 157 — 158.

لمدن وقرى الدلتا ولم يحاولوا التوغل فى صعيد مصر وانما اكتفوا بمدن الوجه البحرى بالاضافة الى زيارتهم لسيناء لأن بها دير سانت كاترين بالاضافة الى كونها معبرا لهم من بلاد الشام الى مصر .

وقد تشابهت كتابات الرحالة الفرنسيين فوصفوا جميعا المزارات المسيحية وصحراء سيناء وميناء السويس والمدن المصرية والآثار القديمة . وقدموا وصفا موجزا لطبقات المجتمع والاحتفالات والأعياد .

وقد اطلعت على ما كتبه رحالة آخر معاصر للفترة الزمنية التى قام فيها الرحالة الفرنسيون برحلاتهم الى مصر وهو الحسن بن محمد الوزان الزياتى (١٣٤) . الذى زار مصر عام ١٥١٧ والتقى بالسلطان سليم فى رشيد ـ فوجدت أن هناك تشابها كبيرا بين ما كتبه الوزان وما كتبه الرحالة الفرنسيون خاصة فيما يتعلق بوصف المدن والقرى وان كانت كتابات الوزان جاءت أعمق واشمل فقد زار مدن الوجهين البحرى والقبلى (١٣٥) . وهكذا نجد أن كلا من الوضع السياسى فى القرن السادس عشر

---

(١٣٤) الحسن بن محمد الوزان الزياتى قام بعدة رحلات الى افريقيا وسقط أسيرا ١٥١٨ صنف كتابه وصف افريقيا ١٥٢٦ بعد ثمانية أعوام فى الأسر وفى اقامته فى ايطاليا درس الايطالية ـ اللاتينية وتذكر بعض المصادر انه استطاع الافلات من ايطاليا ١٥٢٨ ـ ١٥٣٠ واتجه الى تونس وتوفى فيها وقد لقب بايون الافريقى لأنه عندما وقع فى الأسر اهدى الى البابا ليو العاشر فسماه ليو الافريقى وحمله على اعتناق المسيحية وقد نشر كتابه وصف افريقيا ١٥٥٠ فى البندقية وفى ١٥٥٥ ظهرت ترجمة فرنسية ثم ترجمة لاتينية ١٥٥٦ ثم انجليزية ١٦٠٠ وهولندية ١٦٦٥ وأعيد نشره بمختلف اللغات .

(١٣٥) الحسن بن الوزان الزياتى : وصف افريقيا . ترجمة عبد الرحمن حميدة الرياض ١٣٩ .

والتقارب الفرنسى العثمانى الملحوظ فى عهد أسرة ألفالوا قد ساعدا الرحالة الفرنسيين على المجىء الى مصر .

أما عن الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر فى القرن السابع عشر فنجد أن منهم السياسى ورجل الدين والعالم الفيزيائى . ففى مستهل القرن السابع عشر زار مصر ـ السفير الفرنسى فى استانبول فرانسوا سافارى دى بريف وكان قد أرسل من قبل الملك هنرى الرابع لتجديد الامتيازات الفرنسيه مع السلطان أحمد (١٢٦) وقد زار دى بريف مصر اثناء مروره من تونس الى الأراضى المقدسة فى فلسطين عام ١٦٠٤ ولم يسجل دى بريف أخبار رحلته للشرق بنفسه وانما سجلها مرافقه دى كاستل De Castel ونشرها بعد وفاه دى بريف باسم Du Castel Relatoin des Voyages de M. De Brevès وتناول الكتاب أحوال الشرق بصفة عامة وكان نصيب مصر فيما كتبه دى كاستل لا يتجاوز خمسين صفحه (١٢٧) . وجدير بالذكر أن البارون بوفو Beauvau رافق دى بريف فى رحلاته فى الشرق وزار مصر ورشيد والقاهرة عام ١٦٠٥ ولكنه لم يمكث فى القاهرة سوى تسعة أيام وقد نشر بدوره كتابا وصف فيه رحلاته فى الشرق لم يتجاوز ما ذكره عن مصر سوى اثنتى عشرة صفحة (١٢٨) .

وتعتبر كتابات كل من فرمنال وكوبان ودى منكونى من أهم الكتابات التى أعطتنا وصفا دقيقا لمشاهدات وملاحظات هؤلاء الرحالة عن مصر فى النصف الأول من القرن السابع عشر .

---

(١٢٦) Carré : Op. Cit., P. 20.

(١٢٧) Clément : Op. Cit., P. 23.

(١٢٨) Ibid : P. 33.

زار جيل فرمنال مصر عام ١٦٣١ وكان عضـوا فى برلمـان نورماندى جاء بصحبة بعض زملائه الى مصر فرافقه فى رحـلاته كل من دى فنسـنان ستوشـوف De Vincent Stochove وهـو بلجيكى وزميله الفرنسى روبرت فوفيـل Robert Fauvel وقد انتهز الثلاثة فرصـة آدائهم مناسك الحج فى فلسطين فقرروا القيام بعدة رحلات وزيارات فى المناطق الواقعة بين سوريا والعراق ثم زاروا مصر وكان دى فنسنان ستوشوف هو أول من سجل وكتب عن رحلاته فى الشام ومصر ولتأثره بالثقافة الفرنسية دون رحلاته باللغة الفرنسية رغم انه كان بلجيكيا . وقد ساعده هو وزملاءه على التجول فى الشام ومصر فرمان حصل عليه من السلطان مراد الرابع سمح له بزيارة هـذه الأماكن وقد نشر دى فنسنان كتابه عام ١٦٤٣ سجل فيه ملاحظاته عن الشرق ومصر ثم أصدر طبعة ثانية عام ١٦٥٠ عدل فيها كثيرا من الأخطـاء الاملائية التى جاءت فى الطبعة الأولى وتوجد نسختان من كتـاب فنسنان فى مكتبة بروكسل فى بلجيكا (١٣٩) . وقد نادى دى فنسنان فى كتاب بضرورة تكوين الأحلاف الصليبية ضد الدولة العثمانية (١٤٠) .

اما فرمنال فقد قرر تأليف كتاب يتضمن أخبار رحـلاته الى الشرق ومصر خاصة بعد أن وجد أن كتاب زميله قد حقق نجاحا كبيرا فظهرت أولى طبعاته فى فرنسـا عـام ١٦٦٤ (١٤١) ثم ظهرت الطبعة الثانيـة فى روان وجاء كتـاب فرمنال مطابقـا لمـا كتبه ستوشوف مع بعض الاختلافات أو الاضافات البسيطة.

---

(١٣٩) — **Voyage De Sieur De Stochove faict es anneés 1630 1631 --- 1632 --- 1633.**

(١٤٠) Voyage en Egypt 1631 le Caire 1875 — P. 1 — 5.

— **De Vincent Stochove, Gilles Fermanel , Robert Fauve :**

(١٤١) — **Le voyage d'Italie et du Levant**

وترجع أهمية كتابات فرمنال أنه الوحيد من بين الرحالة الفرنسيين الذى تحدث عن الأزهر ودوره التعليمى كجامعة وأبدى اعجابه الشديد به .

أما الزميل الثالث لفرمنال وستوشوف وهو روبرت فوميل فقد توفى فى روان ودفـن فى كنيسة سان دنيس عام ١٦٦١ (١٤٢).

هذا وتعتبر رحلة الأب كوبان من أهم الرحلات فى النصف الأول من القرن السابع عشر فقد زار مصر عام ١٦٣٨ وكان يعمل ملازما فى سـلاح الفرسان فى فرنسا ثم سافر الى استانبول وقام برحلتين الى مصر . الأولى فى أواخر يناير ١٦٣٨ واستمرت حتى يوليو ١٦٣٩ والثانية عام ١٦٤٣ وقد عمل خلالها قنصلا للفرنسيين فى دمياط وبعد عودته الى فرنسا أصبح رجل دين ونشر كتابـا عن رحلاته عام ١٦٨٦ م أوضح فيه مدى ضعف الدولة العثمانية وامكانية القضاء عليها وسافر خصيصا الى روما وعمل على اقناع البابا بضرورة تكوين الحمـلات الصيليبية من جديد ولذلك فان كتابه الذى نشر حمل عنوان « الحرب الصيلبية » (١٤٣) وقـد حرص فى كتابـه على اثارة حماسـة العالم المسيحى وأخذ يذكر الأوروبيين بأمجاد جودفرى بويون وغيره ودعـا الى أتحاد أوروبا ضد تركيا « وتحرير الشرق المسيحى منها » .

وقد اتسمت كتاباته عن مصر بالحقدوالكراهية فتارة يصف المصريين بأنهم وحوش وتارة بالأعداء ، وكراهيته للاسلام واضحة

---

(١٤٢) — Ferrmanel : Op. Cit., PP. 16 — 21.

(١٤٣) — **Le Guerre Sainte Relation des Coyages faits dans turquie et la Tho'baide et la barbarie**

للغاية فى كتاباته ولكن ترجع أهميـــة رحلتـــه أنه قدم صـــورة للخلافـــات والصراعات القائمة بين القناصـــل الفرنسيين فى تلك الفترة (١٤٤) .

أما دى مكنونى Balthazar De Monconys فقد زار مصر عام ١٦٤٦ وكان يعمل ضابطا وينتمى لعائلة أفرادها ضباط ولكنها تهتم بالعلم اهتماما كبيرا فتلقى تعليمه فى كليـــه الجزويت فى ليون حيث تعلم اللغة العربية ولمـا كانت له اهتمامات بالفيزياء والكيمياء والرياضيات فقد أرسله والده الى أسبانيا لاتمام دراسته فى احـــدى الجامعـــات ، وعنـــدما زار مونكونى مصر والشرق نشر نتائج رحلته عام ١٦٦٥ ولكنـــه سجل فيها حرصـــه على اجراء التجـــارب والاهتمـــام بالعـــلوم . وقد عين فى أكاديميـــة باريس (١٤٥) حيث التقى بأشـــهر علماء فرنســـا خـــلال هـــذه الفترة (١٤٦) وقد زار مونكونى أوروبا ورشح فى بعثة دبلوماسية الى البابا اسكندر السابع فى روما وزار بريطانيا والتقى بعلمـــاء جامعة أوكسفورد (١٤٧) كما زار هولندا وألمـــانيا وعندما عـــاد الى فرنسا أسس فى ليون أكاديمية الفيزياء وقد نشر مونكونى كتابا عن رحلته عام ١٦٦٥ وظهرت أولى الطبعات فى ليون (١٤٨) ثم ظهرت

---

(١٤٤) Coppin : Op Cit., PP. 5 — 7.

(١٤٥) عرف القرن السابع عشر فى أوروبا بقرن أو عصر العبقريات لتطور العلوم والمخترعات فيه .

(١٤٦) عمل فيها كل من Sorbière — Pascal — Roberval — Gassendi Thevenot — Justel وغيرهم من علماء فرنسا البارزين فى القرن السابع عشر .

(١٤٧) Digby — Hobbes — Robert Boyle

(١٤٨) Journal des Voyages de Monsieur Monconys

طبعة ثانيـــة عام ١٦٦٦ ثم توالت الطبعات فى باريس عام ١٦٧٧ وفى ليبزج ظهرت طبعة باللغة الألمـانية عام ١٦٩٧ (١٤٩) .

ثم زار مصر بعض الرحالة الفرنسيين وان كانت كتبهم لم تحو معلومات وفـيرة عن مصر ومن اشـــهر هـؤلاء لى بوليـــه Laboullayes (١٥٠) الذى زار مصر عام ١٦٥٠ (١٥١) .

أما فى النصف الثانى من القرن السابع عشر فتعتبر رحـلة جان تيفينو من أهم الرحـلات وكان تيفينو يعمل فى مكتبـة ملك فرنسا وتعلم اللغة العربيـة فزار أوروبا وتركيا وسوريا وفارس والهند ثم زار مصر عام ١٦٥٧ ومكث فيها عامين حيث نزل فى ضيافة القنصل الفرنسى أونوريه دى بريمون . وترجع أهميـة كتابات تيفينو الى أنها ألقت الضـوء على بعض الاحتفالات فى مصر مثل احتفالات الخزنة ـ استقبال الباشا الجديد ـ الوظائف الرئيسية فى مصر فكان من أوائل الفرنسيين الذين تناولوا هذه الموضوعات وان كان قد غلبت على كتاباته روح التعصب والكراهية للمصريين (١٥٢) .

وأخيرا فقد شهدت مصر فى النصف الثانى من القرن السابع عشر قدوم اثنين من الرحـالة هما دارفيو والأب فانزليب ولكن هذه الرحلات لم تكن فى أهمية رحلة تيفينو فالأول دارفيو زار

---

(١٤٩) Monconys, Baltazar : **Le Voyages en Egypte 1546 1647.** Le Caire 1971. PP. 2 — 11

(١٥٠) — **Les Voyages et observation du Sieur Laboullaye sur L'Egypte.**

(١٥١) — Clément : **Op. Cit.**, P. 40.

(١٥٢) — Thevenot, J : **Voyage de M.R. De Thevenot au Levant Amesterdam** troisieme edition 1672 Vol. III P. 381.

مصر عام ١٦٥٨ وهو فارس من مارسيليا أرسله كولبير لدى الباب العالى لاطلاق سراح العبيد الفرنسيين فى تونس عام ١٦٦٨ وقد دعـــا فى كتاباته لشن حروب صليبية على الدولة العثمانيـــة وكانت له صلاته الوطيدة مع البابا أنوسنت الحادى عشر وقد نشرت رحلانـــه فى القرن الثـــامن عشر ونشرهـــا الأب لابا Labat عام ١٧٣٥ ، دون فيها دارفيو ملاحظاته عن الشرق أما ما يخص مصر فكان أجزاء بسيطة . وقد تأثر بكتاباته موليير عندما ألف روايته الشهيرة LeBourgeois Gentilhome (١٥٣) .

أما الأب فانزليب فلم يكن فرنسى الجنسية وانما كان المـــانيا عمل فى خدمة فرنسا ارسله كولبير فى بعثة ودية الى الحبشـــة فمر على مصر وزارها عام ١٦٧٢ حيث تجول فى صعيد مصر فى جرجا وبنى سويف وحرص خـــلال رحلاته على شراء المخطوطات وقد نشرت رحلتـــه عام ١٦٧٧ (١٥٤) بالتعـــاون مع الكاردينـــال D'Estreés فى ليون (١٥٥) .

نلاحظ أن رحالة القرن السابع عشر كان من بينهم رجل الدين مثل الأب كوبلن ومنهم رجل السياســـة مثل فرمنال عضو برلـــان نورماندى ومنهم عالم فيزيائى مثل دى مونكونى وقـــد أعطانا هؤلاء الرحالة وصفا للمدن المصريـــة وثرواتها رأن كان البعض منهم قد اســـتعار العديد من ملاحظـــات رحـــالة القرن السادس عشر عن ثروات مصر وتميز رحالة القرن السابع عشر

---

(١٥٣) — Carré : Op. Cti., P. 18.

(١٥٤) — Nouvelle Relation en forme de Journal d'un voyage fait en Egypte Par Le P. Vansleb religieux Dominicaine en 1672 — 1673.

(١٥٥) — Carré : Op. Cit., P. 28.

انهم اعطونا فكرة عن الأوضاع السياسية فى مصر والنزاع بين البكوات والباشا ــ والوظائف الهامة مثل الباشا ــ الصناجق ــ السباهية .. الخ وبعض الاحتفالات مثل احتفالات سفر الخزنة أو استقبال باشا وقد وصفوا هــذه الاحتفالات بدقة حتى اننا اذا قارناها بما ذكره الأمير أحمد الدمرداش فى كتابه الدرة (١٥٦) المصانة لوجدنا تطابقا كبيرا ، حاصــة وان المؤلف الف كتابــه فى النصف الثانى من القرن السابع عشر .

ويلاحظ أن رحالة القرن السابع عشر انصب اهتمــامهم أيضا مثل رحالة القرن السادس عشر على مدن الوجه البحرى وزيارة الأماكن المسيحية فى سيناء ــ مصر القديمة ــ المطرية ــ الاسكندرية وان كان البعض منهم قد زار بعض مدن الصعيد مثل كوبان الذى تجول فى بنى سويف ولكنهم لم يعطونا فكرة واضحــة ولا وصفا دقيقا لمدن الوجه القبلى وانما اكتفوا بالتركيز على مدن الوجه البحرى فقط .

---

(١٥٦) أحمــد الدمرداش : **الدرة المصــانة** . تحقيق د. عبد الرحيم عبد الرحمن المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٨٩ .

الفصـــل الثـــالث

الحياة الاجتماعية في مصر كما صورها الرحالة الفرنسيون

أولا ــ طبقات المجتمع .

ثانيا ــ الاحتفالات والأعياد .

ثالثا ــ المنشآت الاجتماعية .

أولا ـ طبقات المجتمع المصرى :

قدم لنا الرحالة الفرنسيون وصفا لطبقات المجتمع المصرى وان كان هذا الوصف لا يخلو من التقصير وربما يرجع ذلك الى قصر المدة التى قضوها فى مصر ويمكن أن نجمل ما ذكروه على النحو التالى .

فى عهد الدولة المملوكية :

ذكرنا من قبل أن تينو كان من أوائل الرحالة الذين زاروا مصر فىمطلع القرن السادس عشر أى فى عهد الغورى ، ولما كانت رحلته سريعة الى مصر وذات طابع سياسى كان وصفه للمجتمع المصرى متسما بالسرعة فاكتفى بتقديم وصف للغورى ومجلسه، والمماليك المحيطين به ، وذكر أنهم كانوا يمثلون الطبقة الحاكمة ، وقدم لنا وصفا عن ملابسهم ورواتبهم وما يتقاضون من هدايا ومنح من السلطان (١٥٧) .

أما طومان باى آخر حكام دولة المماليك فقد تحدث عنه تيفيه فذكر « أنه لا يقل مكانة عن صلاح الدين » وأنه اتصف بالشجاعة والاقدام وبموته انتهت دولة المماليك ونلمس من خلال كتابات تيفيه اعجابه الشديد بطومان باى (١٥٨) .

اما فى عهد الدولة العثمانية وبعد أن اصبحت مصر ولاية

---

(١٥٧) Thenaud : Op. Cit., P. 40.

(١٥٨) Thevet : Op. Cit., Universelle PP. 171 --- 180.

عثمانية نجد أن كتابات الرحالة الفرنسيين عنها لم تتناول بالتفصيل التقسيم الطبقى .

أكد الرحالة الفرنسيون أن الأتراك يمثلون الطبقة الحاكمة فى مصر ، وعقدوا مقارنة بينهم وبين المصريين « سكان البلاد الأصليين » فوصفوا الأتراك بأن « لغتهم مختلفة عن لغة المصريين » « وهم معزولون عن باقى الطبقات » وقد « خصصت القلعة لسكنى الباشا ومعظم الأتراك يعيشون فى المناطق المحيطة بها (١٥٩) .

وقارن تيفيه بين الأتراك وبين المصريين « سكان البلاد الأصليين » الذين وصفهم بأنهم « أفضل من الأتراك حيث تسهل معاشرتهم » (١٦٠) وجاء ما وصفه الرحالة الفرنسيون عن المصريين مطابقا لما ذكره ليو الافريقى الذى وصف المصريين « انهم الطف من الأتراك الكسالى ، وهم مرحون لا يبخلون بالكلمة الطيبة ، لا يصنعون الكثير من الاساءات كما هو مألوف فى المدن الكبرى » (١٦١) .

أما مونكونى الذى زار مصر فى القرن السابع عشر فقد وصف المصريين بأن لهم عادات جميلة متسامحون وتمنى أن تكون هذه العادات بين المسيحيين « فهم بلا ضغينة ليس لديهم رغبة فى الانتقام ، تنتهى خلافاتهم بانتهاء اليوم يحرصون على تنفيذ العدالة والقضاء ولا يجبرون المسيحى أن يكون تركيا » أى أن يكون مسلما ، « رسولهم محمد ولكنهم يبجلون ويحترمون عمر وعلى » وعلى حد تعبيرهم فهم عبيد للأتراك (١٦٢) .

---

(١٥٩) Palerne : Op. Cit., P. 42.

(١٦٠) ليو الافريقى : المرجع السابق ص ٥٩١ .

(١٦١)

(١٦٢) Monconys : Op. Cit., P. 56.

بينما نجد أن تيفنو الذى غلب على كتابته الكراهيــة للاسلام والمصريين قد وصفهم قائلا « ان أرض مصر جنة ولكن يسكنها الشياطين سكانها يتصفون باللؤم والكسل والجبن وحب جمــع المــال » (١٦٣) وقد انفرد تيفنو دون غيره من رحــالة القرنين ١٦ ، ١٧ بهذا الوصف وذكر كوبان « بان المرء عندما يشعر بالضجر من سكان القاهرة فانه يطلق عليهم فراعنة » (١٦٤) .

أما عن الطبقة الحاكمة فى مصر فعلى رأسها الباشا التركى وقد اكتفى رحالة القرن السادس عشر بذكر أن الباشا هو حاكم البلاد اما فى القرن السابع عشر فقد ذكر مونكونى « ان الباشا هو حاكم القاهرة له سلطات مطلقة فله حق الاعدام دون ســماع الدفاع » (١٦٥) وذكر كوبان أن الديوان يعقده الباشا فى القلعة ثلاث مرات أسبوعيا ، والباشا يحضر الاحتفالات الهامة والدينية مثل احتفالات المحمل ورمضان وسفر الخزنة الى استانبول وفتح الخليج وهو لا يحصــل على منصبه بسهولة لأن عليه رشــوة الوزراء فى الآستانة لكى يعين فى وظيفته (١٦٦) .

أما المماليك فقد شكلوا طبقة متميزة فى مصر حتى بعد أن أصبحت تابعة للدولة العثمانية وقد اهتم تيفيه بتوضيح كيفية انهيار دولة المماليك وسرد المعارك التى دارت بينهم وبين سليم الى أن اضطروا للاستسلام . وعندما شنق طومان باى عام ١٥١٧ خرج المماليك يطلبون الرحمــة من سليم وهم يصيحون « أرحم عبيدك الضعفاء » كذلك أبدى استياءه من حرق سليم القــاهرة

---

(١٦٣) Thevenot . Op. Cit., P. 399.

(١٦٤) Coppin : Op Cit., P. 61.

(١٦٥) Monconys · Op. Cit., P. 58.

(١٦٦) Coppin : Op. Cit., PP. 93 --- 95.

لأن القائد يونس باشا قذفه أحد الأهالى بحجر فى رأسه (١٦٧) . « وقد شغل المماليك الوظائف العسكرية الهامة ولكنهم لم يختلطوا بالمصريين شأنهم فى ذلك شأن العثمانيين » (١٦٨) .

وقد قارن بيلون بينهم وبين المصريين والأتراك فكانت كفة المصريين هى الأرجح حيث ذكر « ان المصريين أفضل من المماليك لأنهم يتميزون بخفة الظل والمرح » (١٦٩) .

وقد هادن السلاطين العثمانيون المماليك خوفا من قيام الثورات فى بلاد بعيدة عن استانبول . وترجع أصول المماليك الى القوقاز والبحر الأسود وتلقوا تدريبا عسكريا وقد قتل منهم السلطان سليم اعدادا كبيرة عند فتحه لمصر ولكن سليمان هادنهم وسمح لهم بالاحتفاظ بامتيازاتهم وهم يشكلون طبقة عسكرية ومنهم من يدير الأقاليم (١٧٠) ومنهم من يعمل كاشفا وقد عهد الى البعض منهم بادارة مائة أو مائة وخمسين قرية يأخذون عائدها ولا يدفعون للباشا الا المبلغ المقرر فقط (١٧١) .

هذا ويعاون الانكشارية الباشا فى الحكم وقد قدم بيلون وصفا دقيقا عن أسلحتهم وملابسهم (١٧٢) وذكر تيفيه أنهم « ركيزة الباشا فى الحكم » . والانكشارية أفراد يتم أسرهم فى سن الطفولة وقد شكلوا القوة الأولى فى خدمة السلطان والدولة (١٧٣) . « وهم يتميزون بالنظافة ، ثيابهم نظيفة يتسلحون

---

(١٦٧) Thevet : Op. Cit., PP. 171 --- 175.
(١٦٨) Ibid : P. 178.
(١٦٩) Belon : Op. Cit., 108 b
(١٧٠) Coppin : Op. Cit., PP. 83 --- 85.
(١٧١) Fermanel : Op. Cit., P. 25.
(١٧٢) Belon : Op. Cit., 113 b
(١٧٣) Thevet : Op. Cit., P. 178.

باسلحة جميلة حريصــون على اداء الفرائض الدينيــة » (١٧٤) أما السباهية فرسان لهم نفس ملابس الانكشارية ولكنهم يتميزون ببراعتهم فى فنون القتال وركوب الخيل (١٧٥) .

وعلى راس كل مدينة اغـا يتولى ادارتها ويعين من قبل الباشا (١٧٦) يعاونه الجنود . وقد ذكر كوبان بعض الوظائف مثل الدفتردار وذكر انها وظيفة مالية ـ أمير الحج وهو رئيس القافلة، شيخ البلد هو الحاكم الحقيقى فى البلاد (١٧٧) .

وهكذا نلاحظ ان الرحالة خلال القرنين ١٦ ، ١٧ اعتبروا الأتراك والمماليك هم الطبقة الحاكمة والمتفردة فى مصر وان كان رحالة القرن السابع عشر قد ذكروا بعض الوظائف المخصصــة لهذه الطبقة مؤكدين أن المناصب الهامة العسكرية أو الاداريــة انما هى من نصيب الطبقة الحاكمة فقط . « فحتى الجيش كان يحرم على المصريين العمل فيه » (١٧٨) .

أما عن طبقة العلماء خاصة علماء الأزهر والقضاة والفقهاء فلم يتعرض الرحالة للحديث عنهـا ، وانما تحدثوا عن الطرق الصوفية وخاصــة الطريقة البكداشـية التى انتشرت فى مصر وقدموا وصفا للدراويش وعابوا عليهم ملابسـهم الرثة بل خلط بالرن فى القرن السادس عشر بين الدراويش وعلماء الدين فلم يستطع تحديد الفرق بينهم « وذكر أن الدراويش يمثلون طبقة

---

(١٧٤) Coppin : Op. Cit., P. 131.
(١٧٥) Ibid : P. 134.
(١٧٦) Monconys : Op. Cit., P. 56.
(١٧٧) Coppni : Op. Cit., P. 151.
(١٧٨) Ibid : P. 135.

علماء الدين » (١٧٩) . غير ان الاختلاف قد وضح فى القرن السابع عشر بل نجد أن فرمنال يشيد بدور الأزهر كمؤسسة وجامعة تعليمية وهو يعتبر الرحالة الوحيد الذى ألقى الضوء على الأزهر وطلابه فذكر « ان التلاميذ يدرسون فيه الطب والفلك والفلسفة وانه لابد من توقيع الكشف الطبى على الطلاب قبل انتسابهم اليه ويسمح لأهاليهم بالزيارة » والأزهر من أجمل جامعات العالم وبه اعداد كبيرة وهائلة من الكتب ويعاب على علمائه عدم استخدام المطبعة فما زالوا ينسخون الكتب وقد استطاع فرمنال دخول الأزهر لمدة ساعتين وسمح له برؤية الطلاب وتقابل مع بعض علماء الأزهر واكد لهم اعجابه بهم وذكر « أنهم يكرهون الأتراك » (١٨٠) .

أما الدراويش فقد ادرك فرمنال الاختلاف الواضح بينهم وبين علماء الأزهر فذكر « أن الدراويش يتواجدون بأعداد كبيرة فى المدن المصرية ولكن عددهم كبير فى مدينة القاهرة والبعض منهم يرتدى جلود النمور أو الأسود وأحزمة من جلد الثعابين وملابسهم غريبة والبعض منهم يضع خبزا وسكرا فوق رأسه ويرتدى الريش الملون ولهم زعيم يطلق صفيرا مميزا يتجمعون أو يتفرقون عند سماعه » (١٨١) . وقد ذكر مونكونى انه رأى بعض الدراويش يرقصون « دون كلل أو تعب ويضعون أوراق الزهور الزابلة فوق رؤوسهم » (١٨٢) .

ولقد افاض الرحالة الفرنسيون فى وصف أحوال طبقة الفلاحين فقد استرعت انتباههم بفقرهم وبؤس معيشتهم وقد

---

(١٧٩) Palerne : Op. Cit., PP. 85 --- 90.

(١٨٠) Fermanel : Op. Cit., PP. 85 --- 90.

(١٨١) Ibid : PP. 53 --- 54.

(١٨٢) Monconys : Op. Cit., P. 7.

وصفوا الفلاحين « بأنهم سود البشرة من جراء تعرضهم للشمس » (١٨٣) وتعجب بيلون من أن هذه الطبقة رغم أنها من « أكبر طبقات المجتمع حجما الا أنها أقلها امتيازا » فملابسهم رثة يعيشون فى منازل من الطوب النيىء ، غذاؤهم بسيط من الحبوب تزداد مصائبهم فى حالات الفيضان أو تشريق الأراضى فيضطرون الى الهجرة من أراضيهم والاقامة فى المناطق والتلال المرتفعة واكد بيلون أنه « لا يمكن مقارنة الفلاحين بأوضاعهم المتردية بطبقة الأتراك أو المماليك » (١٨٤) ، فهم يتعرضون للعديد من المجاعات وذكر فيلامون أنهم اضطروا لأكل سيد قشطة فى دمياط بسبب انتشار المجاعة .

ومن الطرائف التى ذكرها شسنو وانفرد بذكرها « أن أطفال الفلاحين يظلوا عرايا لا يرتدون ملابس حتى يبلغوا سن العاشرة » (١٨٥) .

البدو :

يسكنون الجبال والصحراء ولا توجد لديهم زراعة ولا منازل شبههم تيفيه « بالتتار » يعيشون فى خيام حياتهم قاسية « لا ينتمون لبشر » « متوحشون » وتعجب أنه « على الرغم من تبعيتهم للأتراك الا أنهم لا يخشونهم » فاذا وقع تركى فى أيديهم سارعوا بذبحه ، اذا ألقوا القبض على مسيحى أو أرمنى أو يونانى فانهم يكتفون بسلب أمواله ثم يجردونه من ملابسه ، وأكد « أنهم

---

(١٨٣) Chesneau : Op. Cit., P. 28.

(١٨٤) Belon : Op. Cit., P 99 b --- 105 a

(١٨٥) Villamont : Op. Cit., P. 180.

رغم كراهيتهم للأتراك الا انهم يدفعون لهم الضرائب عن كل ما يملكونه من جمال وماعز » (١٨٦) .

وقد ذكر بالرن أن البدو لا يذهبون الى المساجد ولا يحرصون على أداء الصلاة مثل المصريين والأتراك « ولا يهتمون سوى برعى ماشيتهم » (١٨٧)وهم يتنقلون منمكان لآخر بحثا عن الماء وكل ما يملكون من متاع يضعونه على ظهر الأبل وهم « مساكين وتعساء » على حد وصف بالرن لهم (١٨٨) .

وقد وصفهم كوبان فى القرن السابع عشر بأنهم يعيشون فى بؤس وشقاء وهم متشردون ، وقارن بينهم وبين بدو الشام فأكد أن بدو مصر أسوأ حالا لأن بدو سوريا يتاجرون مع التجار ويبيعون الصابون والأعشاب حتى انهم يصدرونها الى طولون ومارسيليا بينما بدو مصر لا يتاجرون فى شيء (١٨٩) « ورغم أنهم تابعون للأتراك الا أنهم لا يخضعون لهم » (١٩٠) .

أهل الذمة :

أما عن أهل الذمة فقد ذكر الرحالة الفرنسيون انه من السهل التعرف عليهم وذلك لأن ملابسهم مختلفة عن ملابس الأتراك يرتدون ملابس من اللون الأزرق أما اليهود فيلبسون اللون الأصفر (١٩١) ويعمل الأقباط فى الوظائف المالية والادارية

---

(١٨٦) Thevet : Op. Cit., Universelle PP. 146 --- 149.
(١٨٧) Palerne : Op. Cit., PP. 54 --- 55.
(١٨٨) Ibid : P. 126.
(١٨٩) Coppin : Op. Cit., P. 36.
(١٩٠) Monconys : Op. Cit., P. 53.
(١٩١) Ibid : P. 135.

ومذهبهم « ارثوذكسى » « ونادرا ما يقترفون الجرائم لأنهم يخشون العقوبات » وبعض كنائسهم مهملة غير نظيفة يكثر بها الوطاويط « وأدوات رجال الدين من الخشب حتى لا تنكسر وشكل البطريرك أفضل من غيره من القساوسة لأنهم لا يعتنون بأنفسهم كثيرا » (١٩٢) .

اليهـــود :

وكانوا يعملون فى الجمارك خاصة جمرك بولاق وقد اعتنق الكثيرون منهم الاسلام وقد علل تيفيه ذلك « بالرغبة فى الحصول على مكاسب تجارية وحرية أكثر فى الحركة ، ولكنهم سرعان ما يرتدون الى دينهم » (١٩٣) وقد ألقى تيفيه اللوم على اليهود لأنهم لعبوا دورا فى تسليم القسطنطينية الى الأتراك العثمانيين فقد تظاهروا باعتناق المسيحية وخانوا الامبراطور وكذلك أكد أن الخيانة من صفاتهم فهم المسئولون عن استيلاء العثمانيين على كثير من مناطق أوروبا مثل رودوس ونابولى وبلجراد وبودابست (١٩٤) .

واليهود متواجدون فى جميع المدن المصرية كالاسكندرية ، دمياط ، رشيد « ولا تخلوا مدينة منهم » (١٩١) وفى القاهرة يعمل الكثيرون منهم فى خان الخليلى (١٩٦) وقد قدر تينو أعداد اليهود فى مصر بعشرة آلاف ، ولهم منازلهم الخاصة ومتاجرهم ويقيمون فى حارة اليهود قرب الموسكى (١٩٧) وهم متمسكون بالتوراة

---

(١٩٢) Thevet : Op. Cit., Universelle P. 180.

(١٩٣) Ibid : P. 185.

(١٩٤) Ibid : P. 182.

(١٩٥) Belon : Op. Cit., 98 ba.

(١٩٦) Paleme : Op. Cit., P. 64.

(١٩٧) Thenaud : Op. Cit., P. 50.

والتلمود وقد وصفهم مونكونى بأنهم « لا يتكلمون الا كلاما فارغا ويقصون المئات من القصص من التلمود كلها تتسم بالسذاجة » لهم احتفالاتهم الخاصة ويستخدمون أحيانا اللغة العبرية فى الكتابة (١٩٨) .

وللأقباط حارات خاصة بهم وقدر تينو عددهم فى القاهرة بعشرة آلاف وفى مصر اعداد كبيرة من اليعاقبة والسريان (١٩٩) ويتركز الأقباط فى المناطق مثل مصر القديمة (٢٠٠) .

أما عن طبقة التجار فقد سجل تينو ملاحظة طريفة وهى « ان التجار المصريين يتمتعون بثراء كبير ولكنهم يخفون هذا الثراء خوفا من السلطات المصرية » (٢٠١) وهم يتاجرون فى مختلف أنواع البضائع من ملابس وطباق وحبوب وبهارات وأسلحة وحلى (٢٠٢) .

وقد أكد فيلامون انتعاش التجارة فى المدن المصرية وفى القاهرة وذلك لأنها كانت لها علاقاتها التجارية الوطيدة مع آسيا وافريقياوأوروبا والهند ، وأكد ازدحام القاهرة بأعداد كبيرة من التجار وأن العمليات التجارية تتركز فى « أحياء الغورية وخان الخليلى » الذى تعرض فيه البضائع الهندية من الروائح والمسك والعنبر (٢٠٣) أما الغورية فتعرض فيها السجاجيد التركية والملابس القطنية ومنتجات تركيا وفارس والهند (٢٠٤) .

---

(١٩٨) Monconys : Op. Cit., P. 151.

(١٩٩) Thenaud : Op. Cit., P. 50.

(٢٠٠) Thevet : Op. Cit., P. 455.

(٢٠١) Thenaud : Op. Cit., P. 40.

(٢٠٢) Thevet : Op. Cit., Levant P.14.

(٢٠٣) Villamont : Op. Cit., P. 192.

(٢٠٤) Palerne : Op. Cit., P. 42.

هذا وقد ركز الرحالة الفرنسيون حديثهم عن الجاليات الأوروبية وخاصة الفرنسية . التى يقوم أفرادها بالتجارة . وقد ذكر الرحالة أهم المنتجات التى يحصل عليها الفرنسيون من مصر مثل القطن ، الجلود ، الأرز ، العقاقير الطبية ، ريش النعام ، ولما كان بيلون عالما طبيعيا فقد اهتم بذكر أنواع العقاقير الطبية والنباتات والأعشاب المختلفة فى محلات العطارة مثل السنط والنترات (٢٠٥) أما ما يبيعه التجار الفرنسيون فى مصر فقد ذكر دارفيو بأنه قليل ولكن أغلبه من منتجات الجوز من نورماندى وبروفانس (٢٠٦) .

وقد واجهت الفرنسيين بعض المصاعب مثل اغارات القراصنة وسوء تنظيم الاسكالة المصرية ومنازعات القناصل ــ بالاضافة الى دفع الجمارك فى الاسكندرية ــ وبولاق ــ كذلك تعرض التجارة لاغارات البدو فى الطريق من رشيد الى القاهرة فقد شكى كوبان من تعرضه للسرقة . بالاضافة الى الغرامات التى كانت تفرض على التجار وعلى القناصل أنفسهم فالقنصل الفرنسى دانطوان تعرض للسجن كذلك انوريه دى بريمون وكوبان نفسه سجن عندما كان يعمل نائبا للقنصل فى دمياط (٢٠٧) .

وقد قدم لنا تيفيه وصفا لموكب من التجار الأجانب أثناء ذهابهم الى القلعة لمقابلة الباشا فتحركوا « فى صحبة عدد من الأقزام القادمين من النوبة والسودان وأخذ هؤلاء الأقزام ينظمون خط سير التجار وهم ينشدون الأغانى وكان البعض منهم يمتطى

---

(٢٠٥) Belon : Op. Cit., 113 b.

(٢٠٦) Clément : Op. Cit., P. 48.

(٢٠٧) Coppin : Op. Cit., P. 259.

ظهر الماعز بدلا من الخيول وقد أحسن الباشا استقبال التجار الأجانب » (٢٠٨) .

وقد خصصت فى القاهرة والاسكندرية ودمياط ورشيد خانات للتجار الفرنسيين (٢٠٩) ومن الجاليات التى جاء ذكرها المغاربة (٢١٠) الذين لعبوا دورا هاما فى التجارة الداخلية والخارجية وأصبح لهم العديد من الوكالات التجارية (٢١١) .

طبقة أرباب الحرف :

عدد الرحالة الفرنسيون العديد من الحرف فى المدن المصرية ومن أهمها السقاية وقد كثر عدد أفرادها فى القاهرة التى بنيت بعيدة عن النيل فكان لابد من توصيل مياه النيل الى المنازل والحمامات وكان السقاؤون يحملون قربا من الجلد الأصفر يعلقونها فى رقبتهم (٢١٢) وذكر ليو الافريقى أن السقائين كانوا يستخدمون الجمال لنقل المياه الى أرجاء القاهرة « وغالبا ما تكون هذه القرب مزينة مزخرفة مجهزة بأنبوبة من النحاس الأصفر » (٢١٣) .

وعدد فيلامون أنواعا أخرى من الحرف مثل الحدادين والسروجية وصناع الفزل والنسيج وصناع النحاس وأكد أن

---

(٢٠٨) Thevet : Op. Cit., Levant P. 13.

(٢٠٩) Palerne : Op. Cit., P. 6.

(٢١٠)

(٢١١) لمزيد من التفاصيل عن دور الحالية المغربية انظر عبد الرحيم عبد الرحمن .

المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى ١٥١٧ — ١٧٩٨ — تونس ١٩٨٢ .

(٢١٣) ليو الافريقى : المرجع السابق ص ٥٩٢ .

سليم الأول عندما فتح القاهرة اصطحب معه أثناء عودته الى استانبول العديد من الصناع المصريين (٢١٤) .

ولفت نظر كوبين الحلاقون فذكر أن « البعض منهم يعمل فى الشـارع والبعض الآخر لهم محـلات خاصـة بهم » وأنهم يستخدمون قطعة من الجلد لسن موسى الحلاقة وأن الأحواض التى يستخدمونها فى محلاتهم مصنوعة من النحاس وحجمها أكبر من المستخدمة فى فرنسا ، وأن الحلاقين يقومون ببعض الأعمـال التى اعتبرها اضافية مثل تنظيف الأذن وقص الأظافر (٢١٥) .

اما حرفة تفريخ البيض فما من رحالة زار مصر الا وذكرها مع اعجابه الشديد بمهـارة المصريين فى هذه الصناعة حيث يتم وضع البيض فى فرن متعدد الطوابق يكون الطـابق الأخير مثقوبا ويتم اشـعال نار هادئة لمدة أسـبوع فيبدأ بعد ذلك التفقيس وتخرج الفراخ الصغيرة بأعداد كبيرة وقد ذكر بيلون انه لا أحد يفوق المصريين فى هذه الصناعة (٢١٦) وأكد الحسن بن الوزان بأن « الحكومة المصرية تفرض الضرائب على هـذه الصناعة » (٢١٦) وذكر فرمنال « ان الفراخ الصغيرة يخصص البعض منها للباشـا ويخصص جزء آخر للعاملين فى الأفران وجزء يخصص لمن يقومون بجمع البيض والفلاحون ملزمون بتقديم الثلثين من بيض دجاجهم كل خمسة اشهر الى القاهرة التى يوجد بها خمسة وعشرون فرنا ويتم التفقيس فى شهرى ابريل ومايو » (٢١٨) .

---

(٢١٤) Coppin : Op. Cit., P. 142.

(٢١٥) Belon : Op. Cit., 102 a.

(٢١٦)

(٢١٧) ليو الافريقى : المرجع السابق ص ٥٩ .

Fermanel : Op. Cit., P. 69.

(٢١٨)

اما حرفة الصـيد فأصحابهـا منتشرون على طول مجرى النيل ولهم مراكب خاصـة بهم ولكن أعداد الصيادين تتزايد فى المدن الساحلية خاصـة رشيد التى يعتبر الصيد فيها الحرفـة الرئيسـية للسكان « فلا عمل آخر لهم سوى الصيد » (٢١٩) .

وقد وجد فى القاهرة أعداد كبيرة من الباعة الجائلين يبيعون الفواكه واللحم المشـوى والجبن « يصعب السير فى شـوارع القاهرة بسبب هؤلاء الباعة الذين يندفعون فى الطرقات ويصرخون على بضاعتهم ويصيحون فى المـارة « ظهرك » لكى يحـذروهم بالابتعاد عن الطريق (٢٢٠) .

والطبقة الأخيره هى طبقة الرقيق التى قدرها تيفيه بثلاثين الف عبد معظمهم من المسيحيين ، وأكد أن « الرق غير قاصر على الأتـراك فهو موجود أيضـا فى البلاد المسيحيـة خاصـة فى البرتغال» (٢٢١) وقد شاهد بالرن « أعدادا كبيرة من الرقيق الافريقى فى سـوق خان الخليلى وذكر أنه تم اسرهم من حـدود اراضى القس جون » (٢٢٢) « ويقوم التـاجر بتنظيفهم قبل عرضهم فى الأسواق ويترك الرجال عرايا بينما يسمح للنساء بارتداء الملابس ومن حق المشترى أن يطلب منهن الرقص والغنـاء والكشف عن أسنانهم وقد استخدم المصريون الرقيق للعمل فى المنازل وعاملوهم معاملة طيبة »(٢٢٣) .

هذا وفضـلا عن اهتمام الرحالة الفرنسيين بالحـديث عن

---

(٢١٩) Belon : Op. Cit., 99 a.

(٢٢٠) Villamont : Op. Cit., P. 186.

(٢٢١) Thevet : Op. Cit., Levant P. 14.

(٢٢٢) من اليوبيـا .

(٢٢٣) Palerne : Op. Cit., P. 51.

طبقات المجتمع المصرى الا أننا نلاحظ أن البعض منهم خاصة فى القرن السادس عشر قد أولى اهتماما بجماعات الفجر فذكر تيفيه أنه شاهد أعدادا كبيرة من الفجر فى القاهرة وأرجع أصولهم الى آسيا وأوروبا وأكد « ان لهم لهجات ولغات وصلات مشتركة مع غجر اليونان والبعض منهم من كروفو وكريت وقبرص(٢٢٤) وأكد بيلون أن جماعات الفجر التى شاهدها فى مصر تنتمى « لأصول من ولاشيا وملدافيا » (٢٢٥) « وهم يقرأون الطالع ويعملون بالحدادة ويعيشون على السحر والشعوذة والسرقة وهم لاينتمون للمصريين ومعظمهم مسيحيون ولكنهم تابعون للأتراك » وقد وجد تيفيه أعدادا كبيرة منهم فى القاهرة حول أسوار القلعة وعند الأهرام وأكد أن لهم حرية التجول فى المدن المصرية (٢٢٦) ، بينما وجد بيلون أعدادا كبيرة منهم فى المطرية وعلى ضفاف النيل وفى القرى المصرية (٢٢٧) وذكر تيفيه أن العرب يطلقون على الغجر لفظ « حرامى » (٢٢٨) .

ثانيا ـ الاحتفالات والأعياد :

« لا توجد أمة متمسكة بتقاليدها وتراثها مثل الأمة المصرية » هذا ما ذكره بيلون عن اهتمام المصريين للاحتفالات والأعياد (٢٢٩) ومن أهم هذه الاحتفالات :

---

(٢٢٤) Palerne : Op. Cit., Universselle P. 195.

(٢٢٥) رومانيا الحالية .

(٢٢٦) Thevet : Op. Cit, P. 195

(٢٢٧) Belon : Op. Cit., 112 b.

(٢٢٨) Thevet : Op. Cit., P. 125.

(٢٢٩) Belon : Op. Cit., 101.

الـــزواج :

ذكر بالرن أن للرجل الحق فى الزواج من أربع نساء بالاضافة الى الجــوارى ، وقد اختلط الأمــر عليــه فذكر أن الرجــل يدفع لوالد العروس مبلغا من المــال « لشرائها » وأكد أن الرجال فى مصر يسيطرون على النســاء والعبيد « كما هو الحــال فى اسبانيا والبندقية » (٢٣٠) .

وعند الاحتفال بالزواج تقوم النساء « بتلوين » تخضيب أيديهن وأرجلهن بالحناء (٢٣١) وتطلق الزغاريد . ووصف بيلون النساء اللاتى يطلقن الزغاريد طوال العرس قائلا تفتح المرأة فمها الى أقصى اتساع فتنبعث أصــوات غريبــة وتحرك لسانها بين أسنانها ثم تسحبه الى الخلف فتنطلق الأصوات الغريبة » (٢٣٢) .

ومن الطرائف التى كتبت عن اعجاب الرجل بالمرأة فى مصر خاصة اعجاب الأتراك ما ذكره فيلامون من أنه « اذا أعجب التركى بامرأة تركية فانه يبحث عن وسيلة ليراها وغالبا ما تكون على أسطح المنازل حيث يتبادلان الاشارات فاذا قامت السيدة من مجلســها ووقفت ووضــعت يديها على جانبيهــا فهــذا دليــل موافقتها » (٢٣٣) .

الســـبوع :

أكد بيلون أن النساء فى مصر يتمتعن بخصــوبة عالية فهن « يلدن ما لا يقل عن ثمانية أطفال » وأورد قصــة ذكرها المؤرخ

---

(٢٣٠) Palerne W Op. Cit., P. 77.

(٢٣١) Belon : Op. Cit., 104 a

(٢٣٢) Ibid :

(٢٣٣) Villamont · Op. Cit., P. 216.

بليني فيها الكثير من المبالغات أكد فيها بليني أنه رأى سيدة مصرية وقد وضعت سبعة توائم دفعة واحدة ومن الطرائف التي أكدها بيلون أن النساء في مصر « يلدن في الشهر الثامن » وعلل ذلك بسبب حرارة الطقس والرطوبة (٢٣٤) .

وبعد ولادة الطفل بأسبوع « يقام له حفل كبير » يطلقون فيه على المولود اسما ويقام الحفل على ضوء الشموع ويتم اعداد الولائم في هذا اليوم (٢٣٥) .

أما ختان الطفل فأحيانا يتم بعد الولادة مباشرة وفي المنازل وأحيانا عندما يبلغ الطفل اثنى عشر عاما . وأكد بالرن أن عملية الختان « لا تتم في المساجد وانما في المنازل » ثم تدق الطبول في الشارع وتنثر الزهور ويقدم الطعام ، واذا كان الطفل من عائلة ذات شأن ونفوذ فانه يمتطي حصانا حتى المسجد وأكد بالرن بانه لو اعتنق الاسلام شخص مسيحي فلابد وأن تجرى له نفس المراسم السابقة (٢٣٦) « فالختان واجب على الأقباط في مصر » وذكر فرمنال « أنه لو وقع قبطي في يد العرب فانهم يجبرونه على الختان حتى ولو في سن كبيرة ويقال أنهم يختمون من يمتنع عن القيام بهذه العملية بحديد ساخن على رقبته » (٢٣٧) ولتخفيف الألم عن الأطفال أثناء عملية الختان « يتم وضع قطعة من السكر في أفواههم لمنعهم من الصراخ » (٢٣٨) .

---

(٢٣٤) Belon : Op. Cit., 104 a.

(٢٣٥) Palerne : Op. Ctl., 178.

(٢٣٦) Ibid : P. 178.

(٢٣٧) Fermanel : Op. Cit., P. 73.

(٢٣٨) Monconys : Op. Cit., P. 265.

ومن أجمل الاحتفالات التى شهدها الرحالة الفرنسيون موكب المحمل حيث تسير القوافل متجهة الى « الأماكن المقدسة » من القاهرة الى الحجاز وتزين جمال القافلة بمختلف الزينات للسفر الى الحجاز والأخطار التى تتعرض لها ومهاجمة البدو وقد خصص بالرن فصلا بأكمله للحديث عن استعداد القافلة للقافلة ، ولذلك توفر الحراسة المسلحة للقوافل (٢٣٩) وأكد تينو أن المسافة من مصر الى الأماكن المقدسة تستغرق حوالى « خمسين يوما » (٢٤٠) .

ويحضر احتفال سفر القافلة الى الحجاز الباشا والقضاة وكبار رجال الدولة ويخرج المحمل من القلعة ويضم ٥٠٠ جمل بقيادة أمير الحج وعددا كبيرا من الجنود الانكشارية والعزبان وتحمل الجمال المياه والخيام والخدم وتدق الطبول أثناء سير المحمل (٢٤١) وبعد عودة الحجاج يتم تزيين منازلهم وتقام الولائم (٢٤٢) .

ومن الاحتفالات الشيقة ختم القرآن الكريم فبعد أن يحفظ الطفل القرآن يقام له حفل كبير يلبس الطفل ملابس من الحرير وعمامة جميلة ويركب حصانا مزينا ويمر موكب الطفل فى شوارع المدينة وتدق الطبول ويسير خلف الموكب عدد كبير من الناس « لانهم يتبركون بالطفل حافظ القرآن » (٢٤٣) .

---

(٢٣٩) Palerne : Op. Cit., P. 120.

(٢٤٠) Thenaud : Op. Cit., P. 37.

(٢٤١) Coppin : Op. Cit., P. 605.

(٢٤٢) Palerne : Op. Cit., P. 120.

(٢٤٣) Coppin : Op. Cit., P. 143.

أما احتفال فتح الخليج فكان من أهم الاحتفالات وقد ارتبط بفيضان النيل ويحضره الباشا الذى يسير فى موكب مع كبار الشخصيات ويضرب الباشا بالفأس فى جدار الخليج فيتدفق الماء . وتستمر الاحتفالات سبعة أيام (٢٤٤) . وتقام الاحتفالات فى جزيرة الروضة ويسهر سكان القاهرة ويتنزهون فى المراكب النيلية وهم يشعلون المصابيح وينشدون الأغانى ويتوافد على الروضة الصناع والحواة « أصحاب جلاجلا » « ويغطس الأطفال فى النيل وهم عرايا » ويحرص المماليك على حضور الاحتفال فيحضرون فى مواكب كبيرة مزينة بالأعلام الملونة ومنهم من يقيم معسكرا على البر لاستقبال الزوار ولا تقتصر الاحتفالات على الروضة فقط وانما تقام الاحتفالات فى الأزبكية حيث تمتلىء البركة بالمياه فتسير المراكب فيها (٢٤٥) .

وقد سجل رحالة القرن السابع عشر احتفالات قدوم الباشا الجديد وجاء ما ذكروه مطابقا الى حد كبير لما ذكره الأمير احمد الدمرداش فى كتابه « الدرة المصانة » فذكر كوبان بأن « الاحتفالات تقام لاستقبال الباشا الجديد سواء أكان قادما من البر أو البحر » فاذا كان قادما من البحر أى من بلاد الشام يتم استقباله بواسطة كبار الشخصيات ويقام له معسكر كبير وتنصب الخيام الزاهية الألوان وتفرش أرضيتها بالسجاجيد الثمينة ويقيم أثرياء المماليك المآدب والولائم ويصمم فى هذا اليوم احصاء أعداد الدجاج والأغنام والأبقار التى يتم طهيها ويدخل الباشا القاهرة وقد احتشد حوله المماليك والسباهية والبكوات (٢٤٦) .

---

(٢٤٤) Palerne : Op. Cit., P. 52.

(٢٤٥) Coppin : Op. Cit., PP. 74 --- 78.

(٢٤٦) Coppin : Op. Cit., PP. 93 --- 95.

أما احمد الدمرداش فقد أضاف بأنه فى حالة قدوم الباشا برا يقام معسكر فى الخانكة فيقضى الليلة الأولى فيه ثم يذهب لزيارة الامام الشافعى ويبيت فى العادلية وفى الصباح يدخل القاهرة (٢٤٧) .

أما فى حالة قدوم الباشا بحرا « فيكون استقباله فى الاسكندرية كتخدا الجاويشية وباش جاويشية والملازمين ثم يذهب الى رشيد ليزور الأولياء الصالحين ويمكث عدة أيام ثم ينزل بواسطة السفن الى القاهرة فيصل الوراق ويبيت ليلة وفى الصباح يعد له سناجق مصر وباقى الأغوات فيهنئون بسلامة الوصول ثم يعبرون به النيل الى البر الشرقى فينزل فى قصر الحلى ببولاق » (٢٤٨) وقد قدم لنا فرمنال وصفا لموكب الباشا فى بولاق « وأنه كان فى استقباله حوالى ٢٥٠٠ من الخيول المزينة واعداد كبيرة من الجمال المزينة بالفضة أما حصان الباشا فكان فى أجمل زينة وقد أقيمت له المآدب فى بولاق » (٢٤٩) .

ولم تقتصر ملاحظات الفرنسيين على احتفالات تولية باشا جديد لمصر وانما ذكروا ايضا كيفية عزل الباشا فذكر تيفنو انه شاهد عام ١٦٥٧ عزل باشا من مصر « حضر مندوب من قبل السلطان واجتمع بالبكوات فى ديوان القلعة ثم رمى الأوراق فى ركن الديوان وكأن هذا يعنى عزل الباشا » « فأخذ المماليك يحاسبون الباشا واستردوا الأموال التى اخذها منهم » وقد خرج

---

(٢٤٧) أحمد الدمرداش : المرجع السابق . تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن ص ز .

(٢٤٨) المرجع السابق ص

(٢٤٩) Fermanel : Op. Cit., P. 95.

الباشا من مصر بصحبة المماليك وحزن القنصل الفرنسى بريمون لعزله لأنه كان صديقا له (٢٥٠) .

وأكد كوبين أن العلاقـة كانت تسوء أحيانا بين الباشـا والمماليك فكانوا يراسلون السـلطان ويبعثون اليه بمندوب عنهم « ويقدمون الرشاوى للوزراء فى استانبول » لاقناع السـلطان بتعيين باشا جديد (٢٥١) .

ومن الاحتفالات التى انفرد تيفينو بذكرها احتفال سـفر الخزنة الى الآستانة ففى يوم الاحتفال ينزل الباشا من القلعـة ويرسل ١٥٠٫٠٠٠ قرش سنويا الى السلطان ويرافقه الصناجقة يسيرون على دقات الطبول - ثم يسير خلفهم أعضـاء الديوان ثم الضباط - « ويحمل أموال الخزنة ثلاثون بغلا يسيرون وحولهم الانكشارية المسلمون ويبلغ عددهم حوالى الفين ويرتدى رييسهم قفطانا جميلا يهديه اليه الباشا ويركب حصانا مزينا بالأعـلام الكثيرة ويسير الركب فى نظام تام على دقات الطبول » (٢٥٢) .

وجدير بالذكر أن القناصـل الفرنسيين قد شـاركوا فى احتفالات المصريين فعندما استولى مراد خان على بغداد واقيمت الزينات والاحتفالات فى شـوارع القـاهرة وفرشت بالسجاجيد « حرص القناصل الفرنسيون على تزيين واجهات منازلهم وفرشوا الشوارع أيضا بالسجاجيد الفاخرة » (٢٥٣) . كذلك شـاركوا فى احتفالات استقبال الباشا الجديد فكان القنصل « يسرع بزيارته

---

(٢٥٠) Thevenot : Op. Cit., P. 467.

(٢٥١) Coppin : Op. Cit., P. 164.

(٢٥٢) Thevenot : Op. Cit., PP. 162 --- 163.

(٢٥٣) Coppin : Op. Cit., P. 197.

ويقدم له الهدايا » ، كذلك كان القناصل الفرنسيون يحتفلون بأعياد فرنسا مثل مولد لويس الرابع عشر وذكر كوبلن أن « القنصل الفرنسي بريمون كان يقدم الهدايا للباشا والصناجق فى مثل هذه المناسبات ويحرص على اقامة المآدب » (٢٥٤) .

اما الأعياد التى احتفل بها المصريون فهى عيد الفطر وعيد الأضحى وذكر بالرن أن المصريين « يحرصون فى رمضان على توزيع اللحم على الفقراء ويسمحون لأطفالهم بالخروج والزيارة » (٢٥٥) وفى ليلة القدر تقام الاحتفالات فى شوارع القاهرة « ويتم انارة الفوانيس فى المساجد والحوانيت » وقد حرص الفرنسيون على رؤية الاحتفال بليلة القدر لما فيها من مباهج فكانوا يحرصون على استئجار غرفة فى شارع رئيسى ليتمكنوا من مشاهدة هذا الاحتفال (٢٥٦) .

وأكد فيلامون أن المصريين يحرصون فى أعيادهم واحتفالاتهم على تقديم الطعام « ولديهم عادة جميلة اذ يجلسون على الأرض ويأكلون . وطعامهم مطبوخ بالسمن أو الزيت وهم مغرمون بالفواكة ويأكلون بعد انتهاء الطعام الشمام والبطيخ » لديهم تقليد جميل « فعندما ينظر اليهم احد عند الأكل لابد وأن يعطوه من طعامهم » وهم يأكلون كل أنواع الطعام ما عدا الخنزير لأنه محرم ويشربون العصائر الا النبيذ فهو محرم ايضا والمصريون أكثر كرما من الأتراك الذين يتصفون « بالبخل الشديد » (٢٥٧) .

---

(٢٥٤) Coppin : Op. Cit., P. 195.
(٢٥٥) Palerne : Op. Cti., P. 80.
(٢٥٦) Thvenot : Op. Cit., P. 463.
(٢٥٧) Villamont : Op. Cit., P. 225.

ولم يكتف الرحالة الفرنسيون بذكر أعياد واحتفالات المسلمين فقط بل تعرضوا لبعض المناسبات السعيدة لدى أقباط مصر مثل الزواج والمناولة .

وقدم مونكونى وصفا لاحتفال الأقباط بالزفاف فذكر « ان العروس سارت فى شوارع القاهرة ترتدى فستانا من ساتان دمشقى أبيض وغطت راسها بقماش أبيض حولها أربع من النساء يلعبن الموسيقى يدقون الطبل وامتطت العروس حمارا مزينا وقد التف حولها الأطفال وأشعلوا الشموع ثم أقترب القس منها وتمتم بكلمات غريبة معلنا الزفاف » (٢٥٨) .

كذلك سجل مونكونى المناولة فى أحد كنائس الأقباط فذكر « ان القس وضع خبزا ونبيذا فى طبق ثم قام بالدوران ثلاث مرات ومعه الخبز والنبيذ وصليب خشبى يرفعه الى السماء ثم شرب النبيذ ووضع الخبز والنبيذ فى فم الأطفال ثم وزعه على الحاضرين » (٢٥٩) .

هذا ولم يقتصر وصف الرحالة على احتفالات المصريين من زواج وختان الخ وانما وصفوا أيضا اجراءات الدفن فذكر بالرن انه عند وفاة شخص « كانت النساء تطلق صرخات عالية وأصوات غريبة » ويتم وضع الميت فى منتصف الغرفة وتقوم سيدتان أو ثلاث بالبكاء والنحيب طوال اليوم ويضربن وجوههن » بطريقة غريبة » (٢٦٠) ويسدلن شعورهن ثم يقرأ القرآن وتغسل الجثة ويتم الصلاة على الميت فى المسجد ثم يدفن (٢٦١) فى « علم

---

(٢٥٨) Monconys · Op. Cit., P. 135

(٢٥٩) Ibid : P. 135.

(٢٦٠) المقصود هنا الندابات .

(٢٦١) Palerne : Op. Cit. P. 83.

أبيض » (٢٦٢) وتسير النساء خلفه وعلى وجوههن نقابهن الأسود (٢٦٣) ويسمح للنساء بزيارة المدافن ويحملن معهن الياسمين والأزهار والمياه المعطرة (٢٦٤) .

وقد ذكر تيفنو رأيا غريبا اذ يقول « ان المصريين يعتقدون ان أرواح الموتى تخرج من القبور يوم الأربعاء والخميس والجمعة وتتجول عظامهم فى المقابر . ومن الغريب أن المسيحيين أيضا يعتقدون ذلك وكذلك بعض التجار اليونانين فى مصر القديمة (٢٦٥).

والى جانب مواكب الاحتفالات والأعياد وصف الرحالة الفرنسيون مواكب التشهير بالمجرمين فيتم وضع « المجرم على الجمل ويطوف به شوارع المدينة » - ومن العقوبات المفروضة على المجرمين الضرب بالفلكة « فيتم تقييد أرجل المذنب بالسلاسل ثم يضرب على الأقدام واذا كان جرمه خطيرا فانه يضرب على ظهره وبطنه » ، « ولابد من اكمال عدد الضربات » . أما عقوبة الاعدام فتكون للشخصيات العظيمة أما المصريون فيتم اعدامهم « على الخازوق » وقد ذكر كوبان ان رجلا ظل يحتضر على الخازوق لمدة يومين . والمحكوم عليه بالاعدام يظل يضرب بالعصى حتى يصل الى ساحة الاعدام (٢٦٦) .

وقد شاهد مونكونى اعدام اثنين من الصناجق تمردا على الباشا واعتصما فى مسجد السلطان حسن فألقى القبض عليهما وأعدما(٢٧٦) .

---

(٢٦٢) الأكفان .

(٢٦٣) Monconys : Op. Cit., P. 32.

(٢٦٤) Thenaud : Op. Cit., P. 51.

(٢٦٥) Thevenot : Op. Cit. P. 455.

(٢٦٦) Coppin : Op. Cit., P. 129.

(٢٦٧) Monconys : Op. Cit., P. 145.

ثالثا ــ المنشآت الاجتماعية :

اهتم الفرنسيون بوصف المساجد وذكر تينو أن « المماليك كانوا أحرص من الأتراك على بناء المساجد » فكل مملوك يتولى الحكم لابد وان يعمل على بناء مسجد يحمل اسمه (٢٦٨) وذكر بيلون ان المساجد فى مصر تتكون من عدة طبقات يحرص المصريون على تجميلها ونظافتها (٢٦٩) ويعتبر مسجدى الغورى والسلطان حسن من أكبر واشهر مساجد مصر (٢٧٠) .

وتعجب تيفيه من عدم وجود « أجراس » فى المساجد للتنبيه على الصلاة وأكد نفوره من الآذان « يصعد القسيس المسلم الذى يلقب اماما الى أعلى المسجد ويطلق صرخات حادة لكى يتجمع المصلون فى المسجد » وقد خلط تيقيه بين الاسلام والمسيحيين الشرقيين وقد امتازت ملاحظاته بالتعصب الشديد ضد الديانة الاسلامية فقد أطلق على المساجد فى مصر « معابد الشياطين » (٢٧١) لكن رغم ملاحظاته القاسية والحادة الا انه أبدى اعجابه بجمال المساجد وعماراتها وأكد التزام المصلين « بغسل أجزاء من ابدانهم خمس مرات قبل دخول المسجد » (٢٧٢) .

الأســـواق :

امتازت القاهرة بتعدد اسـواقها وتنوع منتجاتهـا وذلك لأن لمصر صـــلاتها التجارية مع آسيا وافريقيا (٢٧٣) وقد تركزت

---

(٢٦٨) Thenaud : Op. Cit., P. 51.
(٢٦٩) Belon : Op. Cit., P. 136 a.
(٢٧٠) Chesnau : Op. Cit., P. 18.
(٢٧١) Thevet : Op. Cit., Levant P. 21.
(٢٧٢) Ibid : P. 21.
(٢٧٣) Ibid : P. 14.

العمليات التجارية فى « أسواق الفورية وخان الخليلى » وامتازت بعض الأسواق ببيع سلع معينة مثل سوق الفورية الذى خصص لبيع السجاجيد التركية والفارسية ومنتجات الهند وقد حرص التجار على تفطية الأسواق والمحلات بسبب حرارة الجو خاصة فى فصل الصيف (٢٧٤) .

أما الحمامات فقد عنى الرحالة بوصفها ، فذكروا انها كانت من الرخام يتوسط الحمام نافورة وتمتاز أرضية الحمامات بالجمال وهى مفطاة بالسجاجيد وتوجد « موائد » من الرخام يستلقى عليها المستحم للتدليك « والحمامات مزودة بالماء البارد والساخن » ويقصد الحمامات المفاربة والأتراك والمصريون ويسمح للنساء بالذهاب الى الحمامات المخصصة لهن وأكد بالرن بأن النساء يتخذن من الذهاب الى الحمامات « ذريعة للخروج »(٢٧٥) ، وخصصت الحمامات فى الصباح للرجال وفى المساء للنساء ولابد من حضور العروس الحمام يوم زفافها (٢٧٦) .

واخيرا عند ختام الحديث عما ذكره الرحالة عن الحياة الاجتماعية فى مصر نجد أنهم اهتموا بوصف ملابس المصريين خاصة النساء وذكروا ان ملابسهن من القماش الرقيق من القطن او التفتاه وانهن يرتدين الأحذية الملونة ولابد لهن من وضع نقاب على الوجه عند الخروج (٢٧٧) علل بيلون ذلك بأنه على « حسب شريعة محمد » « والنساء لا يخرجن سافرات أبدا ولكن

---

(٢٧٤) Palerne : Op. Cti., P. 42.

(٢٧٥) Palerne : Op. Cit., P. 92.

(٢٧٦) Coppin : Op. Cit., P. 139.

(٢٧٧) Villamont : Op. Cit., P. 218.

ذلك ليس لجمالهن لأن الأثيوبيات أيضا ذوات البشرة السوداء يلبسن النقاب مثل نساء الأتراك » (٢٧٨) .

والحقيقة أن وصف حسن الوزان لملابس النساء أدق « يظهر البذخ على لباس النساء فهن يخرجن متبرجات بالحلى التى يلبسنها على شكل أطواق على الجبين ويضعن عصابة غالية الثمن فوق رءوسهن وتتألف كسوتهن من ثوب من جوخ ذى أكمام طويلة ويلففن أجسادهن بوشاح من القطن المستورد من الهند ويضعن على وجوههن برقعا صغيرا أسود اللون واغرب ما ذكره حسن الوزان عن نساء القاهرة هو انها « لا تقبل أن تغزل أو تخيط نوبا أو تطهو الطعام والقليل يصنعن الطعام فى بيوتهن باستثناء العائلات الكبيرة ، وتتمتع هذه النسوة بحرية كبيرة وبالكثير من الاستقلال وعندما يذهب الزوج الى دكانه تلبس الزوجة وتتعطر وتستأجر حمارا لزيارة أهلها » (٢٧٩) .

هذا ويلاحظ مما سبق اهتمام الرحالة بالحديث عن المساجد والأسواق والحمامات وغيرها من المنشآت الاجتماعية ولا تلمس حرصهم أو اهتمامهم بالحديث عن المؤسسات الثقافية أو دور العلم فى مصر باستثناء فرمنال الذى تحدث عن الجامع الأزهر وأبدى اعجابه به كمؤسسة تعليمية ودينية هامة .

---

(٢٧٨) Belon : Op. Cit., 104. a.

(٢٧٩) ليو الافريقى : المرجع السابق ص ٥٩١ .

الفصـــل الرابـــع

المدن المصريـــة وثرواتها

قدم الرحالة الفرنسيون وصفا لمدن مصر وقراها فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وقد حدد فرمنال موقع مصر فذكر أن البحر المتوسط يقع فى شمالها ومن الجنوب « أثيوبيا » ومن الشرق الصحراء العربية ، ومن الغرب صحراء افريقيا « ومصر من اجمل البلاد وأكثرها رخاء وثروة » (٢٨٠) .

ومدينة القاهرة هى العاصمة وقد اطلق عليها رحالة العصور الوسطى من الأوروبيين « القاهرة الكبرى » وذلك بحكم التقاء الطرق التجارية فيها (٢٨١) .

وتعتبر مدينة « القاهرة الكبرى » من اهم المدن التى حرص الرحالة على تقديم مشاهدتهم وملاحظاتهم عنها، وقد أجمعوا على أن حجمها فاق حجم باريس فذكر جريفان « انها أكبر من باريس ثلاث مرات (٢٨٢) بينما وصفها تينو « بأنها أكبر من باريس خمس مرات (٢٨٣) وأكد بالرن « انها من أكبر مدن إفريقيا » (٢٨٤) . وجاء وصف رحالة القرن السادس عشر مطابقا لما ذكره حسن

---

(٢٨٠) Fermanel : Op. Cit., P. 21.

(٢٨١) جاستون فييت : **القاهرة مدينة الفن والتجارة** ترجمة مصطفى العبادى . القاهرة ١٩٩٠ م ص ٧٣ .

(٢٨٢) Clément : Op. Cit., P. 5.

(٢٨٣) Thenaud : Op. Cit., P. 46.

(٢٨٤) Palerne : Op. Cit., PP. 42 — 45.

الوزان « بانها القاهرة الكبرى الباهرة ، اكبر مدن العالم ، واكثرها رونقا وبهاء » (٢٨٥) .

وأكد رحالة القرن السابع عشر كبر حجم القاهرة فذكر تيفنو « القاهرة أكبر من باريس » (٢٨٦) ووصفها كوبان بأنها « اكبر من باريس ثلاث مرات » (٢٨٧) .

وقد بنيت القاهرة أسفل جبل المقطم ولذلك فقد رأى تيفنو « أن موقعها سيء » وأن مصر القديمة « كانت افضل لأنها قريبة من النيل » (٢٨٨) بينما أكد كوبان أن « موقع القاهرة افضل من مصر القديمة » (٢٨٩) .

وقد شيد القاهرة جوهر الصقلي وهي محاطة بأسوار كبيرة بها العديد من الأبواب عددها فيلامون فمنها باب النصر ويقع نحو الشرق ، وباب زويلة في اتجاه النيل ، وباب الفتوح (٢٩٠) .

ولما كان كوبان مهتما بارسال الحملات الصليبية ضد الدولة العثمانية والشرق فانه قد حرص على ذكر مدى الاستحكامات في مدينة القاهرة فذكر « أن أسوارها قد تبدو قوية ، بها العديد من الأبواب ، ولكنها في الحقيقة ضعيفة التحصين » (٢٩١) وصحح

---

(٢٨٥) ليو الافريقي : المرجع السابق ص ٥٧٩ .

(٢٨٦) Thevenot : Op. Cit., P. 404.

(٢٨٧) Coppin : Op. Cit., P. 57.

(٢٨٨) Thevenot : Op. Cit., P. 405.

(٢٨٩) Coppin : Op. Cit., P. 56.

(٢٩٠) Villamont · Op. Cit., P. 186.

(٢٩١) Coppin : Op. Cit., P.61.

بعض الأخطاء التى وردت فى كتابات بعض الأوروبيين بأن القــاهرة هى بابل القديمة فذكر أن الأخيرة فى العراق (٢٩٢) .

وتعتبر القلعة هى « مركز الحكم فى القاهرة » وقد شيدت على صخور صلبة ، وكانت تعتبر « مدينة ملكية مخصصة للسلطان واسرته فى عهد المماليك » ، وعندما دخل ســليم مصر أصبحت القلعة مقرا للباشا العثمــانى وموظفيه (٢٩٣) وقد شــبه بيلون القلعة بقصر سانت بيير فى روما (٢٩٤) . وعندما زار الفرنسيون القلعة أبدوا اعجــابهم الشديد بها « فمبانيها مزينــة بالرخــام وأبوابها بها العديد من التذهيبات وبها العديد من النوافذ المزخرفة والتى تطل على القاهرة وفناء القلعة عظيم الاتساع به ســلالم صغيرة تسمح بصعود الدواب اليه (٢٩٥) وقد حرص الباشا على اقتناء الحيوانات الجميلة فى القلعة بحيث اننا لا نجد رحالة من رحالة القرن السادس عشر الا وذكر هــذه الحيوانات خاصــة الزرافة التى شاهدوها فى فناء القلعة وتعجبوا من لونها وجلدها الغريب الذى يشبه جلد الثعبان فخصص بيلون فصــلا بأكمله عنها (٢٩٦) ويمتاز قصر السلطان بالاتساع الكبير حتى « ان مساحته تقترب من مساحة مدينة أورليان فى فرنسا » .

ويوجد فى القلعة عدد من السجون بعضها تشبه البئر يكثر فيه الوطاويط والروائح الكريهــة ويسود فيه الظلام التام وهناك

---

(٢٩٢) Thevet : Op. Cit., Universelle PP. 171 --- 174.

(٢٩٣) Thenaud : Op. Cit., P. 41.

(٢٩٤) Belon : Op. Ctl., 109 a.

(٢٩٥) Ibid : P. 108 b.

(٢٩٦) Ibid : P. 109 b.

(٢٩٧) Thenaud : Op. Cit., PP. 46 --- 47.

سجن يقال ان « النبى يوسف حبس فيه » (٢٩٨) . وتوجد اسطبلات الخيل فى القلعة وهى خاصة بالباشا وهى مزينة بأجمل زينة (٢٩٩) .

وفى ميدان الرملية كان الفرسان يقومون بتدريباتهم العسكرية (٣٠٠) وفى يوم الجمعة يقدمون ألعابهم للتسلية ويرقصون فى فناء القلعة (٣٠١) .

وتصل المياه الى القلعة بواسطة قناة تمتد من النيل حتى القلعة وقد أقيمت العديد من السواقى لرفع الماء الى المستوى المطلوب (٣٠٢) وهى المعروفة بمجرى العيون .

وقد سرد الرحالة الفرنسيون بعض القصص عن بئر يوسف فذكروا انه يحوى نفقين احدهما يؤدى الى السويس (٣٠٣) والثانى الى الهرم ويمنع المسيحيون من الاقتراب منه خوفا من دس السم فيه (٣٠٤) وعلى البئر كتابات باللغة العربية ، وتستخدم بقرتان لتديرا الساقية لرفع المياه (٣٠٥) .

أما شوارع القاهرة فهى مستقيمة وطويلة عنى السكان بتشجيرها لكى ينعموا بالظل ويحتموا من شمس الصيف الحارقة

---

(٢٩٨) Thevenot : Op. Cit., P. 449.

(٢٩٩) Thevenot : Op. Cit., P. 450.

(٣٠٠) Monconys : Op. Cit., P. 143.

(٣٠١) Fermanel : Op. Cit., P. 46.

(٣٠٢) Chesnau : Op. Cit., P. 20.

(٣٠٣) Thevenot : Op. Cit., P. 449.

(٣٠٤) Coppin : Op. Cit., P. 67.

(٣٠٥) Monconys : Op. Cit., P. 125.

ولذلك زرعوا فيها أعدادا كبيرة من أشـجار الكافور (٣٠٦) ولكن « تفتقر هذه الشوارع الى الهدوء » فالباعة لا يكفون عن الصراخ للاعلان عن بضاعتهم ولذلك فرغم جمال القاهرة الا « أنها مدينة مزعجة للغاية » على حد وصف تينو لها (٣٠٧) وعند مدخل كل شارع يوجد باب خشبى يغلق على سكانه ليلا (٣٠٨) .

وقد لفتت منـازل مدينة القـاهرة أنظار الرحالة باتساعها وجمال حدائقها الداخلية المزروعة بأجود انواع الثمار والأشجار وأبدوا اعجابهم باهتمام المصريين بتزيين منازلهم « فحتى الأبواب والنوافذ مزينة بالأصـداف والعاج ، ومنازل أثرياء القاهرة لاتقل روعة وجمالا عن أثرياء أوروبا (٣٠٩) وهى متعددة الطوابق والبعض منهم بنى على طراز منازل البندقية . ويعاب على المصريين عدم اهتمامهم بتزيين منازلهم من الخارج (٣١٠) ولذلك فهى قبيحـة من الخارج جميلة من الداخل » (٣١١) ومنازل البكوات جميلة ، واسعة بها فناء كبير واصطبلات تستوعب أربعين أو خمسـين حصانا ، وحجراتها واسـعة مزينـة يوجد مدخـل للمنزل ثم حجرة (٣١٢) تترك فيها الأحذية وحجرة لاستقبال الأتراك وأخرى لاستقبال المسيحيين وباب المنزل الخارجى « قصير لابد للمرء أن يخفض رأسه عند الدخول » (٣١٣) وغرف الاستقبال « أرضيتها

---

(٣٠٦) Belon : Op. Cit., 108 b.

(٣٠٧) Thenaud : Op. Cit., P. 46.

(٣٠٨) Coppin : Op. Cit., P. 57.

(٣٠٩) Belon : Op. Cit., 107 a.

(٣١٠) Palerne : Op. Cit., PP. 42 --- 45.

(٣١١) Monconys : Op. Cit., P. 34.

(٣١٢) Coppin : Op. Cit., P. 85.

(٣١٣) Belon : Op Cit., P. 85.

من الرخـــام » وجدران المنزل أيضا مغطـــاه بالرخـــام مع بعض التذهيبات ، ويوجد فى منازل الأثرياء « نافورة » يخرج منهـــا المـــاء تزرع حولها أشجار الفواكه المختلفـــة ، والفناء الداخلى سقفه مفتوح لدخول الهواء والضوء (٣١٤) ولمـــا كان سكان القاهرة يعتمدون على النيل فى الشرب فان المياه تصـــل الى المنازل بواسطة السقائين (٣١٥) .

وتمتاز القاهرة بكثرة محلاتها التى تفوق فى اعدادها محـــلات روما وباريس « وان كانت محلات القاهرة أصغر حجما » (٣١٦) الا انه يوجد بها انواع مختلفة من البضـــائع مثل « المسك والعطور ومسك الزبار والبلسم والعقاقير المجلوبة من اليمن ـ بالاضـــافة الى العديد من المحلات التى تخصصت فى بيع الطعام » (٣١٧) .

ويوجد فى مدينة القاهرة جنسيات مختلفة ومن التجـــار عرب وبربر ، مغاربة ، يهود ، أثيوبيين ، أرمن ، نساطرة (٣١٨) ولكن اهتمـــام الرحالة الفرنسيين كان بالجالية الفرنسية وقـــد أفاض كوبان فى الحديث عنها فذكر انه كان يوجد فى القـــاهرة خان مخصص لسكنى الفرنسيين وقدر كوبان عدد أفرادها عام ١٦٣٨ بحوالى ثلاثة وثلاثين تاجرا يسكنون حيا قريبا من الخليج . ومنزل القنصـــل من أجمـــل المنـــازل فى هـــذا الحى فحوائطه مزينـــة بالسجاجيد الفاخرة عليها رسومات تمثل لويس الثالث عشر ، وللمنزل فناء كبير واسع وهو متعدد الحجرات فتوجد حجرة

---

(٣١٤)
(٣١٥) Chesnau : Op. Cit., P. 20.
(٣١٦) Palerne : Op. Cit., P. 42.
(٣١٧) Fermanel : Op. Cit., P. 50.
(٣١٨) Villamont : Op. Cit., P. 192.

لاستقبال الفرنسيين وهى مزودة بمائدة وكراسى ومفروشة بالسجاجيد الفاخرة وتوجد غرفة أخرى مخصصة لاستقبال الأتراك وهى مفروشة بالسجاجيد فقط ، وارضية المنزل مغطاه بالأحجار البيضاء الجميلة ، وذكر كوبان أن القنصل الفرنسى بريمون كان حريصا على تزيين جدران منزله بالحيوانات المحنطة كالتماسيح المحشوة بالتبن وبعض الحيوانات الأخرى التى تم صيدها من البحر الأحمر (٣١٩) .

ويوجد مبنى فى الخان ملحق به كنيسة وأماكن لاستقبال أعضاء البعثات الكابوسينية (٣٢٠) .

هذا ولم تحو الجالية الفرنسية التجار وأعضاء البعثات الكابوسينية فقط وانما ذكر كوبان وجود طبيب فرنسى جراح يدعى برتيه Bertier كان يعمل فى خدمة الباشا فى مصر وأن زوجته أصبحت « ترتدى ملابس الأتراك وتلون أيديها وأظافرها » (٣٢١) .

وتعتبر بولاق مرسى القاهرة وبوابتها فلابد من المرور عليها قبل دخول مدينة القاهرة لدفع الضريبة على البضائع (٣٢٢) ويعمل فى بولاق عدد كبير من الصناع وتجار الحبوب وبها منازل جميلة وعدد من المساجد والمدارس وترسو فى بولاق أنواع مختلفة من السفن تحمل البضائع الى القا أ.ه السفن « الجرمة » وهى سفن عريضة تشبه سف

---

(٣١٩)

(٣٢٠)

(٣٢١)

(٣٢٢)

(٣٢٣)

على بولاق مختلف البضائع الهندية (٣٢٤) . وهى ميناء جميل على النيــل يتولى ادارته بعض اليهود ويفرض قرش على كــل رأس للمرور منه (٣٢٥) وفى بولاق بركة جميلة حولها منازل ومساجـد مزينة بأجمل زينة ولكن « منزل الخليفة من أجمل المنازل ليس فى بولاق فحسب وانما فى القاهرة كلها » (٣٢٦) .

اما الروضة فهى منطقة صغيرة قليلة السكان ترجع اهميتها لوجود مقياس النيل بها وهو عمود مدرج يوضح مدى ارتفاع مياه النيل ويوجد موظفون مهمتهم مراقبــة ارتفاع النيل ويقام احتفال كبير فى كل عام بمناســبة فتح الخليج وتنتعش منطقة الروضــة خلال هذه الفترة فيفد عليها الباشا وكبار الشخصيات (٣٢٧) وقد اتفق ما ذكره الرحالة الفرنسيون مع ما ذكره ليو الافريقى « فعلى حافة النهر يوجد بناء صغير منعزل ومغلق وقد أقيمت فى وسطه حفرة مربعة مغطاه عمقها سبعة عشر ذراعا وعلى واجهــة هذه الحفرة تنفتح قناة باطنية تتصــل بمجرى النيل وفى وسط الحفرة عمود مقسم الى عدد متساو من الأذرع بعمق الحفرة وعندما يأخذ النيل فى الزيادة يدخل المــاء فى القناة ويصل الى الحفرة ويصعد يوميا بمقدار نصف ذراع (٣٢٨) .

ولمــا كان مونكونى عالمــا فيزيائيا فقد اهتم بزيارة منطقة الروضة وملاحظة ارتفاع المياه فيها وسجل ملاحظاته وأرســلها الى زملائه العلماء فى باريس (٣٢٩) .

---

(٣٢٤) Coppin : Op. Cit., P. 41.

(٣٢٥) Thevenot : Op. Cit., P. 399.

(٣٢٦) Coppin : Op. Cit., P. 81.

(٣٢٧) Belon : Op. Cit., P. 110 b.

(٣٢٨) ليو الافريقى : المرجع السابق . ص ٥٨٨ .

(٣٢٩) Monconys : Op. Cit., P. 55.

وبالاضافة الى ما سبق أهتم الرحالة الفرنسيون بزيارة الأزبكية وقد اعتبروها « من اجمل مناطق القاهرة ومنازلها من افخم المنازل » (٣٣٠) « وهى منطقة منخفضة عن القاهرة . تنتشر فيها الأشجار الجميلة ، وبها شوارع جميلة ، مساجدها مزينة (٣٣١) . وعندما تمتلىء بركتها بالمياه يركب السكان المراكب ويتنزهون فيها » (٣٣٢) . وقد ذكر ليو الافريقى أن سكان القاهرة يجتمعون فى ساحة الأزبكية بعد الصلاة ـ حيث يجتمع فيها المشعوذون الذين يقومون بترقيص الجمال والحمير والكلاب كذلك يجتمع فيها المتبارزون بالسيف والترس والعصا وغيرها من وسائل التسلية « وتوجد فى هذه الضاحية الملاهى غير الشريفة ، كالمواخير والنساء الساقطات » (٣٣٣) .

وكانت المزارات المسيحية من أهم المناطق التى لفتت انتباه رحالة القرنين السادس عشر والسابع عشر فمعظمهم تقريبا قام بزيارة مصر القديمة والمطرية .

ففى مصر القديمة كنيسة أبى سرجة التى قدم شسنو وصفا تفصيليا عنها (٣٣٤) وذكر بيلون أن بها العديد من الكنائس وبها العديد من الأرمن واليونانيين والمسيحيين (٣٣٥) وترجع اهميتها ان السيدة مريم العذراء فرت من بطش هيرودوس ولجأت الى مصر وأقامت فترة فى مصر القديمة ولذلك فانه اغلب سكانها من

---

(٣٣٠) Villamont : Op. Cit., P. 188.

(٣٣١) Fermanel : Op. Cit., P. 53.

(٣٣٢) Monconys : Op. Cit., P. 34.

(٣٣٣) ليو الافريقى : المرجع السابق . ص ٥٨٣ .

(٣٣٤) Chesnau : Op. Cit., P. 20.

(٣٣٥) Belon : Op. Cit., P. 110 b.

الأقباط كما ذكر مونكونى (٣٣٦) ويوجد بها بعض الأديرة منهـا دير مار مرقص الذى يقصـده المجانين للشفاء . وبها أيضـا مدافن الفرنسيين (٣٣٧) .

والمنطقة الواقعة بين القاهرة ومصر القديمة بها أعداد كبيرة من المزارع الجميلة ويوجد بها صـوامع يقال ان النبى يوسف حفظ فيها قمح مصر (٣٣٨) .

كذلك قصد الفرنسيون المطرية ففيهـا بستان مريم حيث لجأت العائلة المقدسة (٣٣٩) وفيه بئر تفجرت بالمياه تحت أقدام العذراء فشربت منه وقد بنى حول البئر نافورة يستخرج منها المـاء بواسطة اناء من المرمر ، أما شجرة مريم فهى مورقـة دائمة الخضرة (٣٤٠) وهى تنتج بلسما وذكر ليو الافريقى أن أوراقهـا تشبه أوراق الكرمة (٣٤١) وفى الحديقـة توجد نافذة صغيرة ذكر شسنو أن مريم تركت عليها المسيح وهو طفل صغير ريثما تنتهى من غسل ملابسه وقد أطلق عليه « شباك مريم » (٣٤٢) وتمتـاز الحديقة بوجود العديد من الأشجار مثل التين والرمان والجميز ويقصد الحديقة التجار والرحالة الأجانب وهى محاطة بسـور كبير (٣٤٣) . وتوجد شجرة تين كبيرة فى الحديقة يزعم فرمنال أن

---

(٣٣٦) Monconys : Op. Cit., P. 55.
(٣٣٧) Thevenot : Op. Cit., P. 442.
(٣٣٨) Fermanel : Op. Cit., P. 69.
(٣٣٩) Belon : Op. Cit., P. 110 b.
(٣٤٠) Villamont : Op. Cit., P. 204.
(٣٤١) ليو الافريقى : ص ٥٨٦ .
(٣٤٢) Chesnau : Op. Cit., P. 20.
(٣٤٣) Belon : Op. Cit., P. 110 b.

العذراء اختبأت فى جذعهـــا عنـــدما كان جنود هيرودوس يطاردونها (٣٤٤) .

هذا وقد لفتت الآثار الفرعونية القديمة انتباه الرحالة خاصة فى الجيزة فحرص معظمهم على زيارتها رغم أن منطقـة الأهرامات « غير مأهولة بالسكان » ولا يوجد بها سوى الرمال (٣٤٥) ولكن الأهرام « من أجمل عجائب الدنيا السبع » وهى مقامة فى صحراء مصر « بعيدة عن النيل » وقد استخدمت « كمدافن لملوك مصر العظماء » (٣٤٦) .

والهرم الأكبر هرم خوفو كتلة كبيرة ضخمة من الأحجـار بنى فوق أرض صلبة وهو أجمل بكثير مما وصفه الكتاب الاغريق ، وقد حرص بيلون على صعود قمته لرؤية النيل والصحراء (٣٤٧) وقد وجد فرمنال صعوبة كبيرة فى صعود الهرم ولكنـه أكد أن النزول أصعب وأشق ، وقد رأى فرمنال من قمة الهرم « أجمل مناظر العالم حيث تحيط الخضرة بالقاهرة من كل جانب »(٣٤٨) .

وذكر فيلامون قصة طريفة سمعها أثنـاء زيارته لمصر فقد أراد الباشا البحث عن الذهب داخل الهرم فأحضر شخصـا محكوما عليه بالاعدام وأمره بالنزول فى بئر الهرم لعله يجد الكنز أو يموت ، ولكن الرجل وجد سردابا فى البئر سار فيه حتى رأى

---

(٣٤٤) Fermanel : Op. Cit., P. 93.
(٣٤٥) Thenaud : Op. Cit., P. 607.
(٣٤٦) Fermanel : Op. Cit., P. 73.
(٣٤٧) Belon : Op. Cit., 116 a.
(٣٤٨) Fermanel : Op. cit., P. 61.

ضوءاً فى نهايته فاتجه نحوه ونجح فى الخروج وأسرع الى الباشا يخبره بخروجه حيا ولكنه لم يعثر على الكنز المنشود (٣٤٩) .

وقد حرص بيلون على دخول الهرم الأكبر ووصف المصاعب التى صادفها وأنه اضطر لحمل شمعة فى يده ، وأن يزحف على بطنه فى بعض المناطق داخل الهرم حتى تمكن من دخول غرفة مربعة طولها ستة أقدام وعرضها أربعة أقدام حيث وجد تابوتا من المرمر الأسود طوله اثنا عشر قدما وبداخله مومياء الملك (٣٥٠) . وقد حدث لدى فرمنال خلط بين خوفو وبين فرعون موسى فأكد رواية غير صحيحة تاريخيا وهى ان خوفو لم يدفن فى هرمه وانما غرق فى البحر الأحمر وهو يطارد الاسرائيليين وأكد أن خوفو هو فرعون موسى ، وأن أحجار الهرم من الممكن أن تبنى مدينة بأكملها (٣٥١) كذلك حرص مونكونى العالم الفيزيائى على دخول الهرم وقدم وصفا تفصيليا عن طوله وعن حجارته ولكنه لم يجد الزيارة ميسرة فداخل الهرم وجد العديد من الخفافيش (٣٥٢) أما تيفيه فعند كتابته عن الأهرام نقل العديد من مصطلحات هيرودوت ولكنه حرص على تصحيح خطأ وقع فيه البعض » أن من يتسلق قمة الهرم يستطيع رؤية فنار الاسكندرية فصحح ذلك واعتبرها مبالغة (٣٥٣) .

أما أبو الهول فقد أثار أعجاب تيفيه بدرجة كبيرة حتى انه ذكر أنه « لا مجال للمقارنة بين أبى الهول والأهرام » ووصفه

---

(٣٤٩) Villamont : Op. Cit., P. 195.

(٣٥٠) Belon : Op. Cit., P. 114 B

(٣٥١) Fermanel : Op. Cit., PP. 78 --- 80.

(٣٥٢) Monconys : Op. Cit., P. 68.

(٣٥٣) Thevet : Op. Cit., Universeelle P. 191.

بأن له جسد كلب على حد تعبيره وهو ابن ايزيس وكانت تقدم له القرابين ، وان العرب يخشون الاقتراب منه ولا يجرءون على هدمه خوفا من أن تصيبهم اللعنة أو أن يصابوا بمكروه ، وأكد تيفيه هذا الاعتقاد الشائع ودلل على ذلك بحادثة تعرض لها أحد الفرنسيين الذى سخر من ابى الهول وقام بتسلق التمثال وظل يسخر منه ثم ركب حصانه فوقع منه على الفور ودق عنقه (٣٥٤) .

أما بيلون فقد وصف أبى الهول بأنه « أجمل بناء رآه من الحجارة » والتمثال ينظر الى القاهرة ، والأجزاء الخلفية من جسده على شكل جسد أسد أراد المصريون القدماء أن يرمزوا به لقوتهم ونروتهم (٣٥٥) . بينما وجد فرمنال أن أبا الهول له وجه امرأة وجسد ثور (٣٥٦) ووصفه مونكونى بأنه له وجه سيدة وجسد أسد (٣٥٧) .

أعجب الرحالة الفرنسيون بآثار مصر القديمة وذكروا أن مصر مليئة بالآثار والمسلات والموميات وجذبت الأخيرة انتباههم حتى أن بيلون ذكر حرص القنصل الفرنسي فونيل على شراء مومياء لطفل وارسلها الى فرنسا (٣٥٨) ولذلك حرصوا على زيارة سقارة واسماها تيفنو « مدينة ألموميأت » لأن بها العديد منها وأكد أن معظم الفرنسيين قد اشتروا الموميات من هذه المدينة وانه استطاع بمساعدة مرشد عربى أن ينزل فى بئر وجده مليئا بالموميات المحنطة وأن المصريين القدماء حرصوا على تحنيط موتاهم

---

(٣٥٤) Thevet : Op. Cit., Universselle P. 18(.

(٣٥٥) Belon : Op. Cit., 117 a.

(٣٥٦) Fermanel : Op. Cit., P. 73.

(٣٥٧) Monconys : Op. Cit., P. 61.

(٣٥٨) Belon : Op. Cit., 116 a.

بعيدا عن النيــل وتركوا وجوههم مكشــوفة ايمانا منهم بعودة الأرواح الى أجسادهم (٣٥٩) ويتم لف المومـيــاء بالكتــان وتطلى الأقدام والأظافر بالحناء وقد نزع فرمنال أربطة مومياء وجدها فى سقارة فوجد جسدها أسود اللون انتزعت منه الأحشـاء ومعظم الموميات التى وجدها كانت مغطاه بالبلسم وأكد أن صحراء سقارة الجافة ساعدت على حفظ هـذه المومـيــات وأن العرب يرفضون حملها فى سفنهم « لأنها نذير شؤم » (٣٦٠) .

ويلاحظ من وصف الرحالة الفرنسيين للآثار المصرية أنهم اعتمدوا كثيرا فى كتاباتهم على المؤرخين الاغريق خاصــة تيفيه ، كذلك جاءت بعض معلوماتهم غير صحيحة مثل تأكيد مونكونى أن خوفو هو فرعون موسى ، كذلك ايمانهم العميق بلعنة الفراعنــة وتأكيدهم لها كمــا أن أغلبهم عجز عن تحديد وصف لأبى الهول « فهو تارة له جسد ثور وتارة له جسد كلب أو جسد أسـد أما وجهه فهو وجه امرأة » وهذا الخلط يرجع الى اقتباسهم من كتابات الاغريق هذا بالاضافة الى انه فى تلك الفترة لم تكن هناك معرفة صحيحة ودقيقة عن الآثار المصرية .

مدينة الاسكندرية :

وهى من أهم موانىء مصر وبها العديد من التجار المسيحيين واليونانيين وهى عامرة باليونانيين والأسبان والايطاليين (٣٦١) . وقــد رأى كوبان أن موقــع المدينــة سيىء لأن الرمــال تحيط

(٣٥٩) Thevenot : Op. Cit., P. 437.
(٣٦٠) Fermanel : Op. Cit., P. 83.
(٣٦١) Clément : Op. Cit., P. 8.

بها (٣٦٢) وذكر دى كاستل أن ميناء الاسكندرية أصابه التدهور بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح فلم تعد السوق الكبير للتوابل (٣٦٣) .

واكد تيفنو ان هواء الاسكندرية سيىء للغاية من يوليو الى سبتمبر (٣٦٤) وذكر شسنو أيضا هذه الملاحظة خاصة هواء بحيرة مريوط ووصفه « أنه غير صحى وغير نقى » (٣٦٥) واتفق ذلك مع ما ذكره ليو الافريقى « أن بعض منتجات البساتين مؤذية ويصاب الناس بالحمى بعد تناولها » (٣٦٦) .

هذا وقد أقيمت مبانى الاسكندرية فوق صهاريج ماء ذات قناطر ويصل ماء النيل الى هذه الصهاريج ، وأثناء الفيضان يتم حفر قناة صناعية محفورة من النيل حتى الاسكندرية ويدخل الماء تحت سور المدينة ليصب فى الصهاريج (٣٦٧) .

وقد وصف رحالة القرن السادس عشر منازل الاسكندرية بأنها جميلة وشوارعها ومحلاتها تشبه محلات بلاد الشام (٣٦٨) ولكن رحالة القرن السابع عشر وصفوها على عكس ذلك فالشوارع مظلمة غير مرصوفة مسقوفة لحجب أشعة الشمس ومنازلها صغيرة النوافذ والفتحات (٣٦٩) .

---

(٣٦٢) Coppin : Op. Cit., P. 219.

(٣٦٣) Clément : Op. Cit., P. 12.

(٣٦٤) Thevenot : Op. Cit., P. 391.

(٣٦٥) Chesnau : Op. Cit., P. 15.

(٣٦٦) ليو الافريقى : المرجع السابق . ص ٥٧٢ .

(٣٦٧) Palerne : Op. Cit., P. 19.

(٣٦٨) Palerne : Op. Cit., P. 19.

(٣٦٩) Ibid : Op. Cit., P. 19.

هذا ويتولى ادارة المدينــة اغــا يعاونه قاض واثنــان من السوباشى (٣٧٠) والمدينة ضعيفة التحصين لا يوجد بها الا عدد قليل من المدافع ، وأسوارها القديمة القريبة من البحر لايزيد ارتفاعها عن عشرة أقدام (٣٧١) .

وتعيش الجالية الفرنسية فى خان خاص بها يغلق عليها ليلا ويسلم المفتاح للأغــا ويدفع التاجر ستة قروش مقابل اقامته فى الخان ولا يسمح للتجار بالخروج يوم الجمعة وقت الصلاة (٣٧٢) ويشبه الخان الفرنسى من الداخل الدير كما ذكر دى كاستل(٣٧٣) .

ولابد للتجار الأوروبيين من المرور على الجمرك ويوجد فى جمرك الاسكندرية ملتزم يهودى يحمل لقب معلم له سيطرة كبيرة على الجمرك الذى يتم اغلاقه يوم السبت عطلة اليهود (٣٧٤) . ويوجد جمرك آخر قديم توجد بعض الأبراج قريبة منه وتعتبر هذه الأبراج بمثابة قصــور يمكنها استيعاب مائتى رجل ويحذر على الأجانب زيارتهــا ولكن تيفنو تمكن عن طريق الرشــوة من تفقد هذه الأبراج والكتابة عنهــا فأكد أن تحصيناتهــا ليســت قويــة (٣٧٥) .

ويتم نقل البضــائع التى تفد على الاسكندريــة بواســطة « سفن الجرمة » الى رشيد ومنها الى القاهرة (٣٧٦) .

---

(٣٧٠) Monconys : Op. Cit., PP. 13 — 14.
(٣٧١) Coppin : Op. Cit., P. 22.
(٣٧٢) Thevenot : Op. Cit., P. 81.
(٣٧٣) Clément : Op. Cit., P. 12.
(٣٧٤) Thevenot : Op. Cit., P. 395.
(٣٧٥) Ibid : P. 383.
(٣٧٦) Coppin : Op. Cit., P. 18.

أما عن آثار المدينة فهى غنية بالآثار والأطلال والأحجار وأطلالها تدل على جمالها القديم وأنها « كانت أكثر المدن ثراء وعظمة » (٢٧٧) . ومن الآثار الجميلة المسلات وقد ذكر بيلون ان أجمل المسلات تم انتزاعها من الاسكندرية ونقلت الى روما(٢٧٨) وبعض مسلات الاسكندرية استعمل أكثر من عشرين الف شخص لرفعها ، ومعظم المسلات عليها كتابات بالهروغليفية وقد تم نقل العديد منها الى روما واستانبول (٢٧٩) .

ومن الآثار التى كتب عنها الفرنسيون قصر كليوباترة وقد وصف كوبان شواهده بأنها مغطاه بالمرمر الأبيض وبقايا أبوابه من الرخام والجرانيت (٢٨٠) .

وتحوى الاسكندرية العديد من الأعمدة الرخامية (٢٨١) . لعل أجملها عمود بومبى (السوارى) الذى أقيم ذكرى لانتصار قيصر على بومبى وهو كتلة صخرية منحوت من الجرانيت (٢٨٢) وقد وصفه الرحالة انه من عجائب الدنيا ونظرا لارتفاعه يعجز عن تقليده أى صانع وقد أكد بيلون أنه أجمل وأضخم من أعمدة جزيبا فى روما (٢٨٣) وبالغ تيفنو فى وصفه لعمود بومبى فذكر أنه يمكن رؤية ايطاليا من قمته (٢٨٤) .

---

(٢٧٧) Thevenot : Op. Cit., P. 387.
(٢٧٨) Belon : Op. Cit., P. 94 L.
(٢٧٩) Coppni : Op. Cit., P. 20.
(٢٨٠) Ibid : P. 20.
(٢٨١) Monconys : Op. Cit., P. 13.
(٢٨٢) Belon : Op. Cit., P. 93 a.
(٢٨٣) Ibid : P. 93 a.
(٢٨٤) Thevenot : Op. Cit., P. 387.

اما ليو الافريقى فقد ذكر ان السوارى قد اقيم لذكرى مقتل المسيحيين المصريين على يد دقلديانوس وفى ذروة العمود مرآة كبيرة من فولاذ حتى أن أى سفينة قد تمر من جانب هذه المرآة فلابد وأن تشتعل فى الحال (٣٨٥) .

وقد استرعت الكنائس والآثار المسيحية اهتمام الرحالة فركزوا حديثهم عن كنيسة القديس مرقص اوسان مارك فذكر بالرن أن « البنادقة سرقوا جثمانه ونقلوه الى بلادهم وأكد وجود حجر من الرخام فى أحد شوارع الاسكندرية قيل أنه المكان الذى قطعت فيه رأس القديس » (٣٨٦) .

كذلك كتب الرحالة عن « كوم الشقافة » ووصفوها بأنها « تل به بعض الآثار القديمة » (٣٨٧) . وقد أطلق عليه ليو الافريقى « تل الكسرات » حيث يعثر الناس على الحديد من الأبنية القديمة (٣٨٨) .

هذا وقد وصفوا مدينة الاسكندرية بأنها مدينة غنية عامرة بثروتها الزراعية يوجد بها العديد من الفواكه والخضروات والأشجار المثمرة عدد انواعها بيلون ولعل أهمها الموز والتمر الهندى وشجر الآثل وأوراق البردى بالاضافة الى ثروتها السمكية الهائلة (٣٨٩) .

وكذلك زاروا مدينة أبى قير ووصفوا تحصينات تلك المدينة

---

(٣٨٥) ليو الافريقى : المرجع السابق ص ٥٧٢ .

(٣٨٦) Falerne : Op. Cit., P. 13.

(٣٨٧) Coppin : Op. Cit., P. 24.

(٣٨٨) ليو الافريقى : المرجع السابق ص ٥٧٢ .

(٣٨٩) Belon : Op. Cit., P. 93 a.

التى تبعد عن الاسكندرية مسافة بسيطة وانها « مدينة صغيرة » بنيت على ساحل البحر المتوسط بها عدد من مزارع النخيل (٣٩٠) ويوجد قصر فى المدينة به قوة من العساكر بقيادة أغا وعدد قليل من المدافع منها مدفعان أخذا من الملك لويس التاسع بعد سجنه فى المنصورة الا أن هـذه التحصينات ضعيفة وفى حالة سيئة وعلل كوبان ذلك « بأن الأتراك كانوا يهملون المكان الذى يستولون عليه » أما عن مياه الشرب فتصل بواسطة السقائين (٣٩١) .

وتمتد مسافات كبيرة من الرمال فيما بين الاسكندرية ورشيد وتوجد منطقة مزروعة بأنواع مختلفة من الأعشاب يتم تصدير العديد منها الى البندقية وتستخدم هذه الأعشاب بعد حرقها . فى صناعة الموراتو والكريستال وقد ذكر بيلون ملاحظة طريفة وهى أن الرعاة كانوا يقومون بالتجول والتفتيش فى الرمال لعلهم يجدون بعض العملات التى سقطت من المسافرين (٣٩٢) .

وتقع مدينة رشيد عند مصب النيل وكانت تسمى « قديما كانوب » تبعد ستين ميلا عن الاسكندرية وهى من أجمل مدن مصر بعد القاهرة (٣٩٣) ويتولى ادارتها أغا ومعه سوباشى « وميناؤها أغنى من ميناء الاسكندرية » وهى مدينة مزدحمة مأهولة بالسكان فيها حرية أكثر من مدينة الاسكندرية (٣٩٤) بها العديد من مصانع الأرز يكثر فيها الصناع والتجار ، ويعمل فيها

---

(٣٩٠) Ibid : 93 a.

(٣٩١) Coppin : Op. Cit., P. 28.

(٣٩٢) Belon : Op. Cit., P. 97 a.

(٣٩٣) Thevenot : Op. Cit., P. 396.

(٣٩٤) Monconys : Op. Cit., P. 29.

اليهود بأعداد كبيرة وترسو فى مينائها السـفن الكبيرة المحملة بالبضـائع (٣٩٥) .

وقد نزل الرحالة الفرنسيون فى ضيافة نواب القنصل فى رشيد فنزل مونكونى لدى نائب القنصـل دانطوان (٣٩٦) ونزل كوبان فى ضيافة أونوريه دى بريمون (٣٩٧) . وأكدا تمتع الفرنسيين بحرية التجارة فيها غير انه لابد من دفع الرسـوم الجمركية على البضـائع (٣٩٨) .

ويزرع فى المدينة العديد من الحاصلات مثل الموز والبطيخ فضلا عن كون المدينـة من الموانى الهامة وتمتاز بغنى ثرواتهـا الزراعية والحيوانية (٣٩٩) .

وتمتاز رشيد بجمال منازلها التى تضارع منازل القـاهرة كما أن بها حمامات فخمة ، ويحرص السكان على وجود الحـدائق فى منازلهم ويزرعون فيها أوراق البردى وقصب السكر والقلقاس، ويزرع فى رشـيد بعض النباتات التى تستخـدم فى الصباغـة ويستوردها التجار اليونانيون بينما تستورد المدينـة الأخشاب اللازمة لصناعة السفن من استانبول ، فميناء رشـيد له علاقاته التجارية مع العديد من مدن العالم وحرفة السكان الرئيسـية هى صيد الأسماك (٤٠٠) .

---

(٣٩٥) Belon : Op Cit,. P. 98 b.

(٣٩٦) Monconys : Op. Cit., P. 29.

(٣٩٧) Coppin : Op. Cit., P. 28.

(٣٩٨) Thevenot : Op. Cit., P. 396.

(٣٩٩) Palerne : Op. Cit., P. 220

(٤٠٠) Belon : Op. Cit., PP. 97 a --- 98 b.

وقد اعرب كوبان عن استيائه من كميات الناموس الهائلة التى وجدها فى المدينة واستخدم نفس العبارات التى ذكرها بيلون من قبل مؤكدا أنه كان حائلا دون الاستمتاع بجمال المدينة (٤٠١) .

ونعد دمياط من أهم المدن والموانى التى ذكرها الرحالة الفرنسيون فقد أكد بالرن بأنه « لا توجد مدينة تضارع دمياط فى تجارتها ونشاطها التجارى » ويعمل فى المدينة العديد من التجار الأوروبيون وأقام فيها قنصل فلورنسا فى القرن السادس عشر (٤٠٢) .

وذكر بالرن أن مدينة دمياط القديمة دمرت بعد حملة لويس التاسع وكانت تشغل موقع عزبة البرج الحالية وفى زمن الحروب الصليبية كانت دمياط محصنة تحصينا قويا أما « الآن فهى بلا قلاع ولا تحصين » (٤٠٣) .

وقد أكد كوبان ــ الذى عمل قنصلا فى دمياط هذه الحقيقة فذكر بروح حاقدة على الدولة العثمانية قائلا « تعمدت التجول فى دمياط للكتابة عن تحصيناتها لكى أحصل على معلومات تفيد بلادنا المسيحية ، وذلك لأننى أؤمن بتجميع المسيحيين فى حلف مقدس ضد الأتراك وارسال حملة صليبية جديدة ولذلك اجمع المعلومات عن مدى ضعف الامبراطورية العثمانية (٤٠٤) « والمدينة ليست قوية التحصين كما كانت عليه فى العصور الوسطى ومن السهل الاستيلاء عليها لأن تحصيناتها ضعيفة » (٤٠٥) .

---

(٤٠١) Coppin : Op. Cit., P. 28.

(٤٠٢) Palerne : Op. Cit., P. 171.

(٤٠٣) Ibid : PP. 171 --- 173.

(٤٠٤) Coppin : Op. Cit., P. 318 --- 320.

(٤٠٥) Ibid : P. 304

وتمتاز مدينة دمياط بتجارتها وصناعتها فقد غامت فيها صناعة متطورة للأقمشة فهى تنتج أفضل أنواع الملابس الملونة (٤٠٦) وللمدينة نشاط تجارى كبير مع بلاد الشام وخاصة مع يافا ، بيروت (٤٠٧) وتشتهر دمياط بثروتها الزراعية وأشجارها المثمرة ففيها افضل أنواع الفاكهة والأشجار من ليمون وموز ونخيل وبرتقال وزيتون وتين وقصب السكر ويمكن الحصول على أفضل أنواع الموز من دمياط (٤٠٨) .

أما عن تربية الماشية فقد أكد فيلامون ان نشاطها أكبر حجما فى دمياط عن غيرها من مدن مصر (٤٠٩) وأكد هذه الحقيقة ايضا كوبان فذكر أنها « أرخص وأكبر حجما من ماشية القاهرة »، كذلك تمتاز المدينة بثرواتها السمكية ويقوم الناس بتجفيف وتمليح الأسماك وهم بارعون فى صناعة « البطارخ » (٤١٠) .

ومنازل دمياط جميلة تشبه « منازل مدينة طرابلس » حدائق مزدهرة عامرة بالفواكه والخضروات التى تروى بماء النيل (٤١١) .

هذا ولم تقتصر زيارات الرحالة على مدن مصر وموانيها الهامة وانما تجولوا فى المدن والقرى الصغيرة خاصة المناطق الواقعة بالقرب من رشيد فوصفها بيلون « انها من أجمل قرى

---

(٤٠٦) Villamont : Op. Cit., P. 177.

(٤٠٧) Palerne : Op. Cit., P. 181.

(٤٠٨)

(٤٠٩) Ibid : P. 177.

(٤١٠) Coppin : Op. Cit., P. 332.

(٤١١) Belon : Op. Cit., 996.

مصر ومن اغناها ، يزرع فيها أنواع مختلفة من الفواته والقمح وقصب السكر » .

كذلك فان من أجمل المناطق التى وصفوها محلة الأمير ومطوبس (٤١٢) .

أما فوه فقد وصفها بيلون بأنها أكبر من رشيد ويزرع فيها قصب السكر والخيار وبها العديد من أشجار النخيل والقلقاس ومختلف أنواع الخضروات والقمح والأرز (٤١٣) .

وانفرد ليو الافريقى بذكر بعض الملاحظات عن برنبال فذكر « انها تحوى العديد من الساقطات » وعلل ذلك ان بها عددا كبيرا من العمال يشتغلون بضرب الأرز ويحققون مكاسب مالية كبيرة ولذلك فان المدينة تجذب أنظار الساقطات (٤١٤) .

وأبدى الرحالة اعجابهم الشديد بالمدن والقرى الواقعة بين دمياط والقاهرة خاصة شربين والمنصور وتمتاز الأخيرة بتوفر « القمح والأرز والفواكة والخضراوات » (٤١٥) .

واذا ابتعدنا قليلا عن مدن الوجه البحرى سنجد أن سيناء لفتت أنظار الرحالة وكان لابد أن يقدموا لنا وصفا عنها خاصة وانهم مروا بها أثناء قدومهم أو عودتهم من مصر . وقد اهتموا بزيارتها خاصة وأن بها دير سانت كاترين فقدموا وصفا للدير وللرهبان فذكروا « أنهم ينتمون للكنيسة اليونانية يلبسون غطاء يغطى اجسامهم كلها يعملون فى فلاحة الأرض لا يأكلوم اللحوم

---

(٤١٢) Belon : Op. Cit., P. 996.

(٤١٣) Ibid : P. 996.

(٤١٤) ليو الافريقى : المرجع السابق . ص ٥٧٥ .

(٤١٥) Villamont : Op. Cit. P 181.

أو الزبد والجبن وغذاؤهم الرئيسى من الزيتون والبصل والسمك » وأكد بالرن « أن سيناء هى جزء من آسيا وهى حقيقة جغرافية معروفة (٤١٦) .

وأكد بيلون أن الحجاج المسيحيين الأوروبيين يحرصون بعد أداء فريضة الحج على زيارة سيناء ولابد لهم من المرور على دير سانت كاترين غير أنه يتحتم « الحصول على تصريح من السلطات التركية » ، كذلك لابد من وجود دليل أو مرشد عربى ليدلهم على الطريق . وذكر بيلون أن الدير يحوى العديد من رجال الدين المارونيين والسوريين واليونانيين الذين يتكلمون بلغات مختلفة .

ومن المناطق التى حرص المسيحيون الأوروبيون على زيارتها فى سيناء أيضا منطقة عيون موسى حيث لا ينقطع منها الماء (٤١٧) ولكن « طعم الماء سيىء حار قذر » .

ومدينة الطور بها قلعة ويوجد فيها اليهود والمسيحيون والأرمن وهى « ميناء الهند » فى مصر كما أطلق عليها بالرن (٤١٨) وبها كنيسة للمارونيين وسوق للأسماك الجافة التى تملح فى الشمس وهى « مأوى للقوافل التى تتوقف فيها لتنال قسطا من الراحة قبل استكمال الطريق الى مكة والجزيرة العربية » ويمر فى الطور قوافل تحمل المسك والملح ومختلف أنواع البضائع (٤١٩) .

---

(٤١٦) Falerne : Op. Cit., P. 141.

(٤١٧) Belon : Op. Cit., 128 a.

(٤١٨) Falerne : Op. Cit., PP. 148 --- 150.

(٤١٩) Belon : Op. Cit., P. 129 b.

وتقع السويس فى الطريق بين سيناء والقاهرة وهى ميناء هام يتوفر فيها المياه العذبة وبها أنواع مختلفة من الفواكه خاصة العنب وأنواع مختلفة من الماشية . ومنازل المدينة مبنية من سعف النخيل واثناء تواجد بيلون فيها كان الباشا يجهز حملة الى زبيد فى اليمن فقبض على عدد كبير من العرب لتجنيدهم وذكر بيلون أن المسيحيين احتموا فى منازلهم ولم يخرجوا منها خوفا من أن يجبرهم الباشا على الذهاب الى اليمن (٤٢٠) .

وتعتبر الصالحية من المناطق الواقعة فى الطريق الى سيناء وقد بنيت منازلها بجذوع الأشجار وبها العديد من المواشى والدواجن وهى « نقطة هامة فى الطريق المؤدى الى سيناء وبها العديد من المنازل والمساجد الجميلة وهى غنية بأشجارها وفواكهها ويزرع فيها الأرز والشعير والتفاح والعنب والنخيل وتمتاز بوفرة مياهها » (٤٢١) . وقد أضاف ليو الافريقى بأن الطريق ما بين الخانكة والسويس غير مأهول بالسكان (٤٢٢) .

اقتصرت زيارات الرحالة الفرنسيين على المدن الهامة والرئيسية فى الوجه البحرى بالاضافة الى سيناء أما مصر الوسطى والعليا فلم يتصلوا بها وبالتالى لم يقدموا ملاحظاتهم عنها .

هذا وقد لفتت الصحراء الغربية بأديرتها اهتمام رحالة القرن السابع عشر فقاموا بزيارتها وتجولوا فى منطقة وادى النطرون حيث توجد الأديرة المسيحية فتجول كوبان بين دير أبي مقار ،

---

(٤٢٠) Belon : Op. Cit., 132 a.

(٤٢١) Ibid : P. 136 b.

(٤٢٢) Ibid : P. 136 b.

(٤٢٣) ليو الافريقى : المرجع السابق . ص ٦٠٨ .

ودير الأنبا بيشوى ودير القديس جرجس وذكر « أن الأديرة الثلاثة متقاربة تقع فى صحراء وادى النطرون » ويوجد دير رابع هو « دير السريان » يقع فى المنطقة المعروفة « بحر بلا ماء » وأكد كوبان ان سبب تسمية المنطقة بهذا الاسم يرجع الى أن بعض القراصنة أرادوا مهاجمة الدير فأخذ الرهبان يصلون ويدعون الله لانقاذهم ولما كانت مياه البحر تصل الى الدير فقد استجاب الله لدعوات الرهبان وانحسر الماء نهائيا عن المنطقة وفشل القراصنة فى النزول بسفنهم فيها ولذلك سميت المنطقة « بحرا بلا ماء » لأن المياه كانت تصل اليها قديما . ولاشك أن رواية كوبان التى سمعها من الرهبان بعيدة كل البعد عن التفسير العلمى وقد زار هذه المنطقة علماء الحملة الفرنسية وقدموا العديد من الدراسات العلمية عنها (٤٢٥) .

ويعتبر دير أبو مقار من أهم الأديرة فى وادى النطرون ، وهو لا يبعد كثيرا عن الاسكندرية ويوجد بداخله جثمان أبى مقار فى تابوت من الرخام — والأديرة الثلاثة بها العديد من الرسومات التى تمثل العذراء وتتوفر المياه فيها ولكنها تتوفر بدرجة أفضل فى دير الأنبا بيشوى ، وتتوفر الفواكه فى دير السريان والأديرة الثلاثة محكمة التحصين محاطة بأسوار عالية خوفا من هجمات البدو (٤٢٦) .

وهكذا اقتصرت رحلات الرحالة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر على مدن الوجه البحرى ومصر السفلى وان كانت

---

(٤٢٤) Belon : Op. Cit., 136 b.

(٤٢٥) لمزيد من المعلومات عن منطقة « بحر بلا ماء » انظر ما كتبه الجنرال اندريوس من علماء الحملة الفرنسية عن المنطقة فقدم دراسة طبوغرافية منها « طبوغرافية البحر الفارغ » وصف مصر ج ٢ .

(٤٢٦) Coppin : Op. Cit. PP. 272 --- 281.

هناك بعض الجولات القليلة فى أجزاء من الوجه القبلى مثل زيارة كوبان لبنى سويف لزيارة بعض الأديرة فيهـا وقد وصف كوبان قرى ومدن الوجه القبلى بأنها « أقل جمـالا وتحضرا من الوجه البحرى » (٤٢٧) .

أما عن ثروة مصر الزراعية والحيوانية فقد قدم بيلون بوصفه عالمـا طبيعيا وصفا دقيقا عنها بحكم تخصصه ومن أهم الفواكه التى لفتت أنظار الرحالة الموز وذكر بيلون « أن العرب يعتبرون الموز هو الثمرة التى حرمها الله على آدم » وتنتج مصر كميـات كبيرة من أجود أنواعه فى مدينة دمياط (٤٢٨) ويصنع منه السكان المربى .

وينمو الشمام فى مصر فى معظم المدن المصرية وأجود انواعه فى رشيد كذلك التين ينمو فى معظم المدن وتمتاز أشجاره بالضخامة ومن أشهر فواكه مصر الليمون والبرتقال والتمر هندى والنخيل « أما الأخشاب فهى قليلة فى مصر وتستورد العديد منها » (٤٢٩.

ومن أشهر أنواع الخضراوات الخيار وخاصـة خيار الشنبر « ويوجد كميات كبيرة منه خاصـة فى بولاق والمطرية وأشـجاره تشبه أشجار التوت وأزهاره كبيرة شديدة البياض ويبلغ ارتفاع شجرة الشنبر نفس ارتفاع أشجار الموز » ومن الخضراوات التى أعجب بها بيلون وغيره من الرحالة واستحسنوا مذاقها «القلقاس» وافاضوا فى الحديث عنه وكيفية طهوه ويوجد فى مصر كميـات

---

(٤٢٧) Ibid : PP. 276 --- 279.

(٤٢٨) Belon : Op. Cit. P. 93 b.

(٤٢٩) Ibid : Op. Cit. 130 b.

كبيرة من الأرز والفول والقمح والشعير والذرة وذكر بيلون إن الشعير والفول فى مصر غذاء للحيوان والانسان (٤٣٠) .

اما النباتات فقد أفاض بيلون فى الحديث عنها وعدد أنواعها ولعل أهمها أشجار الطلح Acaccia وقد ذكرها ليو الافريقى أيضا « وهى شجرة شوكية تنتج الصمغ ونوع الصمغ الذى تنتجه يشبه المستكة » ولذلك يستخرجه بعض التجار « للغش والتدليس على انه مستكة » لأن له نفس اللون والطعم (٤٣١) وتستورد اليونان كميات كبيرة منها بعض هذه الأعشاب تفرض عليها الضرائب مثل الحنة والبعض منها « يستخدمه الأتراك لطرد الأرواح الشريرة » ، كما يستخدمون الأعشاب « كعطر » أيضا خاصة الياسمين الذى يزرع فى معظم حدائق القاهرة (٤٣٢) .

ويزرع أيضا فى مصر أوراق البردى والورود على اختلاف أنواعها والحنة السوداء واللوتس (٤٣٣) وفى سيناء يتم جمع « المن » ويقوم الرهبان بجمعه وتوجد العديد من الأعشاب فى صحراء سيناء وتوجد زهرة تعرف باسم « كف مريم » يقال انها تتفتح مرة واحدة فى العام لأن العذراء أثناء مرورها فى سيناء امسكت واحدة بكفيها » .

أما ثروة مصر الحيوانية فقد قدم بيلون وصفا تفصيليا عنها فمصر غنية بالأبقار والماشية والجاموس والعجول والأغنام والماعز . وأكد بيلون أن حجم الماشية فى مصر أكبر من حجمها فى

---

(٤٣٠) Belon : Op. Cit., 129. a.

(٤٣١) ليو الافريقى : المرجع السابق . ص ٦٦ .

(٤٣٢) Belon : Op. Cit., P. 136 a.

(٤٣٣) Ibid : P. 99 b.

أى بلد آخر اما الجمال والخيول فتوجد أعداد كبيرة منها وتمتاز بكبر حجمها فى مدن مصر أما فى سيناء فهى صغيرة الحجم (٤٣٤) .

وتستخدم الجمال فى الانتقال وبعض السكان يأكلون لحم الجمال مدخنا بعد تجفيفه فى الشمس وقدر بالرن عدد الجمال فى القاهرة وحدها بثلاثين الف جمل وقد وصفها بأنها « هادئة ترفص على نغمات الطبول » (٤٣٥) .

وذكر بيلون أن المصريين لديهم قدرة غريبة على تدريب الحيوانات خاصه القرود والحمير والجمال والخيول (٤٣٦) . وانفق ذلك على ما ذكره ليو الافريقى عن مقدرة المصريين على تدريب حيواناتهم فقال رأيت فى القاهرة جمالا ترقص على نغمات الطبل وقد شرح لى صاحبه كيف دربه فقد اختار قعودا وحبسه مدة نصف ساعة فى غرفة مبنية كأنها غرفة حمام وكانت ارضيتها مدفأة بواسطة موقد . وفى خلال هذا الوقت كان يقف الرجل خارج الحجرة ويلعب بدق الطبل وكان الجمل يرفع رجلا ويخفض اخرى كما لو كان يرقص وليس بسبب هذه الموسيقى بل بسبب السخونة التى كانت تؤلمه وبعد سنة من هذا الترويض قاد الرجل هذا الجمل الى الساحة العامة وما أن يسمع هذا قرعات الطبل حتى يظن أنه فوق الأرض التى كان عليها وذلك بسبب تذكره حرارة النار التى كانت تلسع خفيه فيرفع قوائمه بنفس الطريقة حتى ليبدو وكأنه يرقص » (٤٣٧) .

---

(٤٣٤) Ibid : P. 120 B.

(٤٣٥) Palern : Op. Cit., P. 50.

(٤٣٦) Belon : Op. Cit., 120 B.

(٤٣٧) ليو الافريقى : المرجع السابق ص ٦٣٧ .

ومن الحيوانات التى اهتم الرحالة بذكرها « وعل أوريكس » أو المهـا وقد خصص له بيلون فصـلا بأكمله فوصفه بأنه يشبه « الثور » وان كان أصغر حجما ويباع بأسـعار كبيرة (٤٣٨) . أما ليو الافريقى فقد ذكر أن وعل الأوريكس « يفقد أظافره فى الصيف بسبب سخونـة الرمال فيمنعه الألم من الركض ولذلك من السهل صيده فى فصل الصيف » (٤٣٩) وتصنع التروس من جلده الذى يمتاز بالصلابة وتباع بأسعار عالية الثمن .

كذلك خصص بيلون فصلا بأكمله الحديث عن « قط الزباد » كان قنصل فلورنسا فى الاسكندرية يمتلك واحدا وكان يقدم له اللبن فقط حتى يتمكن من ترويضـه ، ويستخرج « الزباد » من هذا الحيوان وهى مادة يفرزها « من العرق تحت أبطيه » (٤٤٠) « وذيله وحالبيه » ويمكن استخراج الزباد « مرتين أسبوعيا » على حسب قول ليو الافريقى (٤٤١) .

ويوجد بمصر أنواع كثيرة من الماعز والغزال « وتكثر أعداد الغزال فى صحراء سيناء والصحراء الشرقية والسويس (٤٤٢) .

ومصر غنية بثرواتها المائية ففيها « أعداد كبيرة من الأسماك مختلفة الأنواع واجودها فى رشيد » (٤٤٣) . وبالاضافة الى الثروة السمكية توجد أعـداد كبيرة من « فرس النهر » الذى يمتـاز

---

(٤٣٨) Belon : Op. Cit., 118 b.

(٤٣٩) ليو الافريقى : المرجع السابق ص ٦٤١ .

(٤٤٠) Belon : Op. Cit., a.

(٤٤١) ليو الافريقى : المرجع السابق ص ٦٤٥ .

(٤٤٢) Palerne : Op. Cit., P. 113.

(٤٤٣) Fermanel : Op. Cit. P. 5.

بكبر حجمه وجلده السميك . وأكد فرمنـــال أن « فرس النهر لا يتواجد الا فى نيل دمياط فقط » (٤٤٤) .

اما التماسيح فقد اسهب الجميع فى وصفها فذكر شسنو بأنها توجد « بأعداد كبيرة فى النيل ومنها الصغير والكبير فأحجامهـا متعددة » (٤٤٥) وأكد تيفيه أن المصريين والعرب « يأكلون لحم التماسيح » (٤٤٦) وتحدث فيلامون عن خطورتها وانها تخرج أحيانا الى الشاطىء وتلتهم النساء والأطفال . وقد روى فيلامون قصة طريفة وهى أن تاجرا من البندقيـــة اشترى تمساحا من بولاق لعرضه فى ايطاليا وقد شق بطنه لتحنيطه ووجد أعدادا كبيرة من الحلى التى يرتديها المغاربة وكميات كبيرة من الأساور الفضية والنحاسية ، وأكد أن التمساح عندما يبتلع انسانا فانه « يبدأ براســـه » ، ويحصـــــل المصريون على « المســـك من انثى التمساح » (٤٤٧) .

وقدم لنا ليو الافريقى كيفية صيد التماسيح فى مصر فذكر انه يستخدم حبلا طويلا يربط فى شجرة كبيرة وفى نهاية الحبل يربطون فيها نعجة فيخرج التمســـاح ليبتلع الحيوان مع الكلاية فتخترق فكه ولايمكن أن يتخلص منها (٤٤٨) وذكر فرمنال انهم « يربطون حمارا مجروحا لصيد التماسيح » .

وقد خصص بيلون فصلا بأكمله لوصف شكل التمســـاح وارجله وجلده فذكر انه « يشبه الحرباء » له ذيل طويل يتكون

---

(٤٤٤) Ibid : P. 5.

(٤٤٥) Chesnau : Op. Cit., P. 30.

(٤٤٦) Thevet : Op. Cit., Levant P. 101

(٤٤٧) Villamont : Op. Cit., PP. 194 --- 197.

(٤٤٨) ليو الافريقى : المرجع السابق . ص ٦٤٥ .

من « عدد من الحلقات » ويمتاز جلده بالسمك والقوة (٤٤٩) وفى نيل مصر يوجد أعداد كبيرة من البجع وكلاب البحر (٤٥٠) .

ويكثر فى مصر الزواحف خاصة فى سيناء وقد خصص بيلون جزءا كبيرا لوصف الزواحف خاصة الحرباء فذكر أنها تتلون حسب البيئة وان ألوانها متعددة كذلك وصف ما شاهده من أنواع مختلفة من السحالى والثعابين (٤٥١) .

وفى مصر اعداد كبيرة من الطيور خاصة العصافير على اختلاف انواعها ويساعد مناخ مصر المعتدل والذى يمتاز بالدفء طوال العام على نموها وتكاثرها بكميات كبيرة (٤٥٢) ومن المخاطر التى تتعرض لها الطيور فى مصر خطر حيوان النمس أو كما يسميه المصريون « فار الفراعنة » ويستخدم لصيد القطط والفئران والدجاج والعصافير (٤٥٣) وقد تأكد بيلون بأنه يتم فى الاسكندرية تربية النمس فى الحدائق للتخلص من القطط والفئران . والنمس لا يهدد الطيور فقط وانما يلتهم أعدادا كبيرة من بيض التماسيح (٤٥٤) .

النيـــل :

انبهر الرحالة الفرنسيون بجمال نيل مصر فوصفه فرمنال « بأنه من اكبر الأنهار ويخرج من جنة الأرض ويستمد مياهه من

---

(٤٤٩)
(٤٥٠) Belon : Op. Cit., 101 a.
(٤٥١) Ibid : 98.
(٤٥٢) Ibid : 95 b.
(٤٥٣) Thevet : Op. Cit., P. 211.
(٤٥٤) Belon : Op. Cit., PP. 95 a --- 95 b.

بحيرة تقع عند اقدام جبل القمر فى اثيوبيا ، فيضانه معجزة وله مواسمه ويستمر من يونيو الى سبتمبر » (٤٥٥) .

هذا ونلاحظ أن الرحالة لم يحددوا منابع النيل وغلبت على كتابتهم العديد من الأخطاء وذلك لأن منابع النيل لم تكن قد اكتشفت بعد خلال هذه الفترة . وقد وصف فرمنال فيضان النيل بانه يعتبر كارثة فى بعض السنوات « لأنه يغرق القرى ويضطر السكان الى الاحتماء بالمناطق المرتفعة » ، كذلك فان انخفاض مياه النيل يؤدى الى كارثة حيث تنتشر المجاعات والأوبئة خاصة الطاعون (٤٥٦) .

واكد كوبان « بأن أجمل القرى التى يمكن أن يشاهدها الانسان توجد على ضفاف نيل مصر حيث يحمل لها النيل الطمى فتزداد التربة خصوبة » (٤٥٧) .

ولما كان مونكونى عالما فقد أجرى العديد من التجارب على مياه النيل وأرسل الى زملائه فى باريس بمشاهداته وملاحظاته عن كثافة مياه النيل ، ومدى ارتفاعها فى وقت الفيضان ، « وأكد أن نهر النيل اقوى بكثير من نهر السين فى فرنسا » وأعجب مونكونى « باعتماد المصريين على التقويم القمرى » وذكر « أن الأقباط هم الذين يتولون عملية الحساب السنوى بالنسبة السنة القمرية وعدد الأشهر » (٤٥٨) .

---

(٤٥٥) Fermanel : Op. Cit., P. 29.

(٤٥٦) Fermanel : Op. Cit., P. 59.

(٤٥٧) Coppin : Op. Cit., P. 36.

(٤٥٨) Monconys : Op. Cit., PP. 55 --- 5

الخاتمـــة

يتضح لنا من العرض السابق أن اهتمام فرنسا بمصر جاء نتيجة اهتمامها بالشرق بصفة عامة ، خلال القرنين السادس عشر ، والسابع عشر وحرصها على التعرف على امبراطورياته العظيمـة خاصـة الامبراطورية العثمانيـة والفارسية والصينية والهنديـة فالاهتمـام بمصر انمـا هو جزء من الاهتمـام الأكبر والأهـم بالامبراطورية المهيمنة على مصر الا وهى الدولة العثمانية . فقد توثقت الصـلات بين فرنسا والدولة فى القرن السادس عشر خاصة خلال فترة الحروب الايطالية فكثرت السفارت والبعثات من فرنسا الى الدولة العثمانيـة وقد مر معظم اعضاء هذه البعثات ببلاد الشام لتأدية فريضـة الحج كما حرصـوا على المرور على مصر لزيارة أهم المزارات المسيحية فيها .

أما فى القرن السابع عشر فقد تزايد الاهتمام بالشرق بسبب رغبة فرنسا فى مد نشاطها التجـارى الى هذه الجهات وقد تمثل

هذا الاهتمام أيضا فى ترجمة القرآن الكريم وشراء المخطوطات وتكوين كوادر من المترجمين وارسال البعثات الدينية ، ولكن هذا الانفتاح الكبير على الشرق يقابله من جانب آخر توتر فى العلاقات الفرنسية العثمانية .

هذا وقد جاءت كتابات الرحالة عن الشرق ومصر بعد انقطاع طويل عن هذه المناطق ولذلك تم تداول كتابات هؤلاء الرحالة من قصر الى قصر ومن كنيسة الى كنيسة واستقبل الفرنسيون هذه الكتابات بشغف وحماس شديد .

ويلاحظ أن معظم رحالة القرن السادس عشر والسابع عشر كانوا من رجال الدين المسيحى مثل جريفان افاجار — فيلامون — كوبان — ولكن كان منهم أيضا السفراء والساسة مثل جان تينو وشسنو — دى بريف — وفرمنال ، ومنهم الطبيب والفيزيائى والجغرافى مثل بيلون ومونكونى وتيفيه ، ومنهم الأساتذة مثل تيفنو وقد اقتصر وصف هؤلاء الرحالة على مدن مصر السفلى وأهم المزارات المسيحية فى وادى النطرون وسيناء ومصر القديمة والمطرية .. الخ ولم يحاول معظمهم التعمق فى صعيد مصر اما لقصر الفترة التى قضوها فى مصر أو لعدم معرفتهم ودرايتهم بمدن الوجه القبلى وخوفهم من التجول فى مناطق مجهولة بالنسبة لهم كذلك كان لابد من حصولهم على اذن من السلطات المصرية لكى يتمكنوا من زيارة هذه الأماكن .

لقد قدم لنا الرحالة وصفا لطبقات المجتمع ولأهم الاحتفالات والأعياد كما قدموا وصفا تفصيليا للبيئة المصرية والحيوانات والزواحف والطيور والنباتات حتى أن البعض منهم قد خصص فصولا بأكملها لوصف زرافة أو الحديث عن تمساح أو بعض

السحالى والعصافير ويلاحظ أن ما نلمسه من ايجاز شديد عند وصف الحياة الاجتماعية يقابله اسهاب فى وصف البيئة المصرية .

ونلمس من كتابات الرحالة كراهيتهم للأتراك لأنهم يمثلون الدولة العثمانية المسلمة ، ونلمس تعاطفهم مع المصريين « سكان البلاد الأصليين » على حد تعبيرهم وأيضا تعاطفهم مع المماليك حتى أنهم أبدوا أسفهم لوقوع مصر فى يد الدولة العثمانية بعد أن كانت دولة عظيمة فى عهد المماليك .

ونلاحظ فى كتابات الرحالة العديد من المبالغات ونجد أن البعض منهم نقل ملاحظات عن هيرودوت واسترابون ـ كذلك نلمس جهلهم وخلطهم بالمذهب الأرثوذوكسى فى مصر ، فخلطوا بينه وبين الديانة الاسلامية مثل قولهم « وصعد القسيس المسلم ليؤذن للصلاة » وتعجبهم لعدم « وجود أجراس فى المساجد » ، كذلك لا نلمس تعاطفهم مع الأقباط المصريين وذلك لأنهم مختلفون عنهم فى المذهب .

واذا كانت مصر العليا قد ظلت مجهولة بالنسبة لرحالة القرن السادس عشر والسابع عشر الا أن رحالة القرن الثامن عشر قد كشفوا عن هذا الغموض فخلال هذا القرن اندفعت فرنسا نحو الشرق بسبب رغبتها فى التوسع الاستعمارى وارسال البعثات الدينية ، ولا ننسى مجهود المستشرقين فى ترجمة المؤلفات العربية فازداد نهم المعرفة للشرق . كذلك تصدى رجال الدين المسيحى للديانة الاسلامية فعقدوا المقارنات « بين ديانة مكة وديانة روما » على حد تعبيرهم بالاضافة الى اهتمام المفكرين بالديانة الاسلامية ففريق هاجمها وعلى رأسه فولتير وفريق آخر أبدى اعجابه بها

وعلى رأسه ديدرو وقد أدت كل هذه العوامل الى تكثيف الجهود للتعرف على الشرق واندفاع الرحالة الى مصر ، ولا ننسى تشجيع ملوك فرنسا لهؤلاء الرحالة خاصـــة لويس الخامس عشر .

وقد تنوعت وظائف رحالة القرن الثامن عشر فكان منهم الطبيب والعالم مثل بول لوكا ومنهم أعضاء بعثات دينية مثل الأب سيكار رئيس بعثة الجزويت، ومنهم علمـــاء آثار مثل الأب دورفال والراهب فورمان ومنهم العالم الطبيعي مثل سونينى كذلك يقابلنا اهتمام القناصـــل بالكتابة عن مصر وشراء المخطوطات مثل القنصل الفرنسي بينوا دى ميليه ـ ومن أهم المؤلفات التى وضعها الرحالة فى القرن الثامن عشر كتاب فولنى الذى يعد عملا متكاملا عن مصر كذلك كتاب أوليفيه الذى أوفد من قبل حكومة الادارة قبيل الحملة الفرنسية مباشرة وبذلك نجد أن رحـــالة القرن الثامن عشر قد أفادوا من كتابات رحالة القرن السادس عشر والقرن السابع عشر وأضافوا عليها وكانت هذه الكتابات كلها هى التى اعتمد عليهـــا علماء الحملة الفرنسية عندما اخرجوا مؤلفهم « وصف مصر » حتى أن دينون ذكر أنه « لولا كتابات هؤلاء الرحالة لمـــا تمكنا من الكتابة عن مصر ودراستها الدراسة المستفيضة » .

اولا ــ المصادر والمراجع العربية :

١ ــ ابن اياس : محمد بن احمد بن اياس الحنفى : **بدائــع الدهور فى وقائــع الدهور** . حققهـا محمـد مصـطفى ٩٢٢ ــ ٩٢٨ هـ (١٥١٦ ــ ١٥٢٢ م) القـاهرة ١٩٦٢ م جـ ٥ .

٢ ــ ابن زنبل الشيخ احمد الرمال ٩٦٠ هـ : **آخرة المماليك** تحقيق عبد المنعم عامر القاهرة ١٩٦٢ .

٣ ــ احمد عزت عبد الكريم : **دراســـات فى تاريخ العــرب الحديث** . القاهرة ١٩٧٠ .

٤ ــ احمد فؤاد متولى : **الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له** القـاهرة ١٩٧٦ .

٥ ــ احمد الدمرداش : **الدرة المصانة** ، تحقيق د. عبد الرحيم عبد الرحمن المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقيـة . القـاهرة ١٩٨٩ .

٦ ــ الحسن بن محمد الوزان الزياتى : **(ليو الافريقى)** : وصف افريقيا فى ١٣٩٩ هـ .

٧ ــ جاستون فييت : **القاهرة مدينة الفن والتجارة** . ترجمـة مصطفى العبادى . القاهرة ١٩٩٠ .

٨ ــ زينب راشــد : **تاريخ أوروبا الحديث** . القاهرة ١٩٨٦ ج ١ .

٩ ــ سعيد عاشــور : **الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام** . القاهرة ١٩٦٩ .

١٠ ــ عبد الحميد البطريق ، عبد العزيز نوار : **التاريخ الأوروبى الحديث من عصر النهضة الى أواخر القرن الثامن عشر** . القاهرة ١٩٨٠ .

١١ ــ عبد الرحيم عبد الرحمــن : **المغاربــة فى مصر فى العصر العثمانى ١٥١٧ ــ ١٧٩٨** تونس ٨١٩٢ .

١٢ ــ عبد الرحيم عبد الرحمن : **التاريخ الأوروبى الحـديث والمعاصر** القاهرة .

١٣ ــ عبد العزيز الشناوى : **أوروبا فى مطلع العصور الحديثة** . القاهرة ١٩٧٧ .

١٤ ــ عبد العزيز الشناوى : **الدولة العثمانية دولة اسـلامية مفترى عليها** . القاهرة ١٩٨٠ .

١٥ ــ على حسونه : **تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية** . دمشق ١٩٨١ .

١٦ ــ محمد أنيس : **الدولة العثمانية والشرق العربى ١٥١٤ ــ ١٩١٤** . القاهرة ١٩٨١ .

١٧ ــ محمد فريد بك المحامى : **تاريخ الدولة العلية العثمانية** . القاهرة ١٩١٢ .

ثانيا – المراجع الأجنبية :

1. Belon, Pierre De Mans : *Le voyage en Egypte 1547. Le Caire 1969.*
2. Carré, Jean Marie : Voyageurs et écrivains *Français en Egypte Le Caire 1922. Tome 1*
3. Chesnau, Jehan :*Voyages en Egypte 1549 .. 1552.* Le Caire 1984.
4. Clement, R : *Les Français d'Egypte aux XVII et XVIII siécles. Le Caire 1960.*

6. De Hammer, J. *L'empire Ottoman traduit de l'Allemand par J.J. Hellert Paris 1936·* Tome 4 — 6
7. *Deschamps : Histoire de la question coloniale en France Paris 1891.*
8. De Villamont : *Voyages en Egypte des années 1589 —1590 — 1591· Le Caire 1971.*
9. Dyer, Thomes and Arthur Hassall : *Modern Europe 1595 — 1585 London 1901 Vol. II.*
10. Fermanel, Gilles :*Voyages en Egypte 1631 Le Caire 1975.*
11. Grant, A.J. : *A History of Europe 1494 — 1610· London 1954.*

12. Monconys, De Balthassar : *Les Voyages en Egypte 1646 — 1647*. Les Caire 1971.

13. Palerne, Jean : *Le Voyage en Egypte 1581.* Le Caire 1970.

14. Thenaud, Jean : *Le Voyage d'outremer (Egypte-Mont Sinay-Palestine).* Paris 1884.

15. Thevenot : *Voyage de M.R. De Thevenot au Levant. Amesterdam Troisieme édition 1872.* Tome II.

16. Thevet, André : *Voyages en Egypte 1549 — 1552.* Le Caire 1984.

ENCYCLOPEDIAS

The new Cambridge Modern History 1493 — 1520. Cambridge 1961 Vol. I

الفهــرس

الصفحة

صـــــدر فى هذه السلسلة

٩ ــ المرأة المصرية والتغيرات الاجتماعية ١٩١٩ ــ ١٩٤٥
د · لطيفة محمد سالم

١٠ ــ الأسس التاريخية للتكامل الاقتصادى بين مصر والسودان ــ « دراسة فى العلاقات الاقتصادية المصرية السودانية ١٨٢١ ــ ١٨٤٨ » ·
د · نسيم مقار

١١ ــ حول الفكرة العربية فى مصر ــ « دراسة فى تاريخ الفكر السياسى المصرى المعاصر » ·
د · فؤاد المرسى خاطر ·

١٢ ــ صحافة الحزب الوطنى ١٩٠٧ ــ ١٩١٢ ــ « دراسة تاريخية » ·
د · يواقيم رزق مرقص ·

١٣ ــ الجامعة الأهلية بين النشأة والتطور ·
د · سامية حسن ابراهيم ·

١٤ ــ العلاقات المصرية السودانية ١٩١٩ ــ ١٩٢٤ ·
د · أحمد دياب ·

١٥ ــ حركة الترجمة فى مصر فى القرن العشرين
أحمد عصام الدين ·

١٦ ــ مصر وحركات التحرر الوطنى فى شمال أفريقيا ·
د · عبد الله عبد الرازق ابراهيم ·

١٧ ــ رؤية فى تحديث الفكر المصرى ــ « دراسة فى فكر أحمد فتحى زغلول » ·
د · أحمد زكريا الشلق ·

١٨ ـ صناعة تاريخ مصر الحديث ـ « دراسة فى فكر عبد الرحمن الرافعى » ٠
د ٠ حمادة محمود اسماعيل ٠

١٩ ـ الصحافة والحركة الوطنية المصرية ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢ ـ من ملفات الخارجية البريطانية ٠
د ٠ لطيفة محمد سالم ٠

٢٠ ـ الدبلوماسية المصرية وقضية فلسطين ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ -
د ٠ عادل حسين غنيم ٠

٢١ ـ الجمعية الوطنية المصرية سنة ١٨٨٣ ـ « جمعية الانتقام » ٠
د ٠ زين العابدين شمس الدين نجم ٠

٢٢ ـ قضية الفلاح فى البرلمان المصرى ١٩٢٤ ـ ١٩٣٦ ٠
د ٠ زكريا سليمان بيومى ٠

٢٣ ـ فصول فى تاريخ تحديث المدن فى مصر ١٨٢٠ ـ ١٩١٤ ٠
د ٠ حلمى أحمد شلبى ٠

٢٤ ـ الأزهر ودوره السياسى والحضارى فى أفريقيا ٠
د ٠ شوقى الجمل ٠

٢٥ ـ تطور النقل والمواصلات الداخلية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى ١٨٨٢ ـ ١٩١٤ ٠
د ٠ فاطمة علم الدين ٠

٢٦ ـ جمعية مصر الفتاة ١٨٧٩ دراسة وثيقية ٠
د ٠ على شلش ٠

٢٧ ـ السودان فى البرلمان المصرى ـ ١٩٢٤ ـ ١٩٣٦ ٠
د ٠ يواقيم رزق مرقص ٠

٢٨ ـ عصر حككيان ٠

٩ ٠ د / أحمد عبد الرحيم مصطفى ٠

٢٩ ـ صغار ملاك الأراضى الزراعية فى مديرية المنوفية ٠ ١٨٩١ ـ ١٩١٣ ٠

د ٠ حلمى أحمد شلبى

٣٠ المجالس النيابية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى

د ٠ سعيده محمد حسنى

٣١ ـ دور الطلبة فى ثورة ١٩١٩ ، ١٩١٩ ـ ١٩٢٢

د ٠ عاصم محروس عبد المطلب

١٠ ـ الطليعة الوفدية والحركة الوطنية ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢

د ٠ اسماعيل محمد زين الدين

٣٣ ـ دور الاقاليم فى تاريخ مصر السياسى

د ٠ حمادة محمود اسماعيل

٣٤ ـ المحتدلون فى السياسة المصرية

د ٠ أحمد الشربينى السيد

٣٥ ـ اليهود فى مصر

د٠ نبيل عبد الحميد سيد أحمد

وبين يديك :

مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السـادس عشر والسابع عشر

د ٠ الهام محمد على ذهنى